مِدَادُ أَقْلَامٍ

آراء وآداب

تأليف:

أحمد محمود النجار

مِدادُ أقلام

آراءٌ وآداب

تأليف:

أحمد محمود النجار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

إهداء

إلى سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى آل بيته وأصحابه وأتباعه وجميع عباد الله الصالحين.

إلى والدي وأخي وزوجتي وولدي أسامة وابنتي أسما.

إلى جميع مشايخي في الله ومن علمني حرفا وأخص شيخنا الشيخ مصطفى زغلول القادري حفظه الله.

إلى كل أخ لي في الله وصاحب وصديق وأخص منهم صديقي عبدالرحمن السيد رشاد و صديقي أحمد صديق أبو خشبة.

إلى كل من وقعت عينه على صفحات هذا الكتاب وكل قارئ وسامع وتالي ولجميع المسلمين.

مقدمة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد النبيين، وخاتم المرسلين، وقائد الغُرِّ المُحجَّلِين، سيدنا ومولانا محمد، صلى الله عليه، وعلى آله، وأصحابه، وأحبابه، وأتباعه، وكل من اتبع طريقته إلى يوم الدين.

أما بعد:

لطالما كان أدب المقال من أفضل أنواع الأدب التي يمكن أن يشغل القارئ بها وقته، فمحتواها مليئ بعصارة الخبرات والتجارب والأفكار التي اشتملت عليها عقول مؤلفيها، وذلك بلا شك من أفضل السُبُلِ لاختصار الأعمار، والإفادة من التجارب، والبدء من النقطة التي وقف عندها السابقون.

وهذا الكتاب يندرج بشكل عام تحت أدب المقال، فهو كتاب يحتوي على مقالاتٍ قمت بكتابتها ونشرها على مواقع الصحف الإلكترونية، ومواقع التواصل

الاجتماعي، ضمَّنتُ في هذه المقالات أفكاري وقناعاتي في شتَّى القضايا، والمواضيع، والأحداث.

وعلى ذلك فقد قسَّمتُ الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

أولا: القسم الديني:

وناقشت فيه قضايا دينية، مثل الاحتفال بالمولد النبوي، والإسراء والمعراج، وبعض المواعظ المختلفة.

ثانيا: القسم الفكري والاجتماعي:

وناقشت فيه قضايا فكرية، ومسائل اجتماعية، مثل الثانوية العامة، والدروس الخصوصية، واحتكار التجار، والهمة العالية، ومشاهد الكرم، وغير ذلك.

ثالثا: القسم الأدبي:

وناقشت فيه مسائل أدبية، مثل النسوية في الأدب العربي، وتحليل لبعض القصائد العربية، ومناقشة لبعض الكتب، وشرح لبعض القصائد التي تشتمل على معاني طيبة.

وكل كتاب بعد كتاب الله يعتريه النقص والخلل، فمن وجد في كتابي هذا ما يستحق المراجعة، وإعادة النظر، فليطلعني عليه وهو عندي مشكور.

وَبَعدُ فهذا جُهدُ المقِلَّ، والله من وراء القصد في أن ينفع بهذا العمل، كل من يطالع فيه، إنه حسبي ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

أحمد محمود النجار

الفصل الأول

القسم الديني

أساليب الدعوة

{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [فصلت: ٣٣].

يصف المولى -عز وجل- قيمة ومقام الدعوة والداعي إلى الله -سبحانه-، ولكي يكون الداعي أهلاً لهذه الدرجة، عليه أن يكون مستعداً لهذه المهمة الشاقة السامية النبيلة.

والإعداد لها يكون بشيئين:

الأول: إلزام النفس بطاعة الله -عز وجل- واجتناب معصيته، والتحلي بمكارم الأخلاق والاتباع للرسول الكريم -ﷺ-.

الثاني: دراسة علوم وتعلم أساليب تساعد في المحاورة والوعظ والإرشاد، مثل علوم التنمية البشرية وعلم النفس ومهارات الإلقاء المختلفة.

أما الإلتزام بالطاعة وتجنب المعصية، فلأن الداعي يجب أن يدرك قيمة ما يدعوا إليه، ولا يكون كذلك حتى يكون هو أول من يفعل ما يدعوا إليه، ولا يدخل تحت طائلة قوله -تعالى- **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}[الصف: ٢-٣].**

وحتى يكون الداعي قدوةً حسنة لمن يستمعون إليه ومن يتوجه إليهم بقوله، فيكون داعياً إلى الله بحاله ومقاله، ويكون ممن قال فيهم الفاروق سيدنا عمر -ﷺ- **"ادعوا إلى الله وأنتم صامتون"** أي: بحسن أفعالكم وجميل أخلاقكم.

أما دراسة العلوم وتعلم أساليب المحاورة والوعظ المختلفة، فهذا من الضرورة والأهمية بمكان، فالداعية يكون أمامه كافة الشخصيات المختلفة والمتنوعة، والتي تستوجب معرفة مفتاح كل شخصية للتعامل الأمثل معها.

فعلم التنمية البشرية وعلم النفس مثلاً، يساهمان كثيراً في تقوية الملكات الشخصية للداعية، ويبصرانه بآفاق بعيدة لإمكانياته، فيكون مدركاً لما هو قادرٌ عليه، وبالتالي تعلو همته كما أنه يساعد على معرفة أسرار وصفات الشخصيات الإنسانية المختلفة.

وأخيراً: النية الصادقة.

فالداعي إلى الله يجب أن يبتدأ أمره ودعوته بتصفية نيته، ومعرفة القصد من جهده ودعوته، فلا يكون القصد هو حب الظهور والشهرة، فحب الظهور قسم الظهور، ولا يكون القصد التعالي والتكبر على الأقران وعامة الناس، فلو أنصف الإنسان لعلم أن ما فيه من خير هو من توفيق وتيسير الله -تعالى- له، فلله الفضل والمنة.

* * *

وتوبوا إلى الله

لا شئ أروح للقلب وأطيب للنفس من القرب من الله -عز وجل- فإن في قرب الله الطمأنينة والأمان، والرضا والسعادة، والفهم والعلم، والوصول لجناب الحق، وهذا مبتغى كل مريدٍ يسلك طريق العبادة، وإن أول هذا الطريق هو التوبة إلى الله -عز وجل- قال -تعالى-: **{إن الله يحب التواب ويحب المتطهرين}[البقرة: ٢٢٢].**

والتوبة لها أقسامٌ عديدة وهي في مجملها على أقسام وهي:

أولاً: توبة عوام المسلمين، وهي التي تكون من المعاصي التي يكون السبب فيها إما جهل الإنسان الذي يرتكب الذنب ولا يعلم حرمته عند الله -عز وجل- فهذا يتوب ثم يسعى في التعلم ومعرفة الحلال من الحرام، وإما من غلبة النفس والشيطان، فحالة الإيمان عند الإنسان تزيد وتنقص، وفي نقصانها تكون غلبة النفس الأمارة بالسوء والشيطان على الإنسان فيقوم بمعصية الله -عز وجل- فهذا يتوب

ويعمل على أن يزيد إيمانه دوماً، وذلك يكون عن طريق ذكر الله عز وجل والإخلاص لله في العبادة.

وإما من السهو والنسيان فالإنسان قد يكون مراعياً لحرمات الله متجنباً لها، إلا إنه تعتريه أوقات ينسى فيها نفسه ويعصي الله -عز وجل- مثل أن يكون غاضباً أو ممتلئاً بالهموم والأحزان فهذا يتوب ويرجع إلى الله ويدرك أن الله سبحانه ما خلق الكون وصرفه إلا بحكمةٍ بالغة وليُلزِم نفسه بمكارم الأخلاق.

ثانياً: توبة الخواص من العباد والزهاد، السائرين في طريق الله -عز وجل- وهؤلاء القوم الكرام تكون توبتهم حتى من الخواطر التي تخطر ببالهم، فقد تخطر المعصية أو سوء الخلق ببال الإنسان فإن فعل ما يخطر بباله أثم وإن لم يفعل غنم.

وهؤلاء الكرام يتوبون إلى الله عز وجل من مجرد ورود هذه الخواطر ببالهم، وهذا مقامٌ عظيم ودرجة عظيمة من درجات مراقبة النفس ومحاسبتها، عملاً بقول الرسول الكريم -ﷺ- : **"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم"**.

* * *

هجرة الأمين المأمون

دخل علينا شهر الله المحرم بكل نوره وخيره وبركته، وأتانا بذكرى حبيبنا -ﷺ- وذكرى هجرته الشريفة الطيبة المباركة، والتي لها من المكانة في قلوب المسلمين القدر الرفيع، والمقام العالي المنيع، لارتباطها بالأمين المأمون -ﷺ- فهي هجرة كانت عبارة عن نقطة تحول في التاريخ، لذلك كانت تقويماً وتاريخاً للمسلمين، وأتت بالدروس الحياتية المهمة وإن كانت دروسها لا تنضب.

فنتعلم من هجرة الأمين المأمون -ﷺ- الصبر والتحمل في سبيل الخير والدعوة إلى الله -عز وجل- مع المعرفة التامة أن هذا الطريق له مسؤولية عظيمة والسير فيه شاقٌّ عسير، ولا يوفق فيه إلا من وفقه الله ورزقه حسن النية في ابتداء السير والإخلاص، فقد تحمل نبينا -ﷺ- في سبيل نشر دعوة ربه ما تنوء بحمله الشم الرواسي، ومكث في مكة يدعوا ثلاث عشرة سنة لا يكل ولا يمل، يقابلهم بالرحمة واللين والحِلم.

نتعلم من هجرة الأمين المأمون -ﷺ- أن أرض الله واسعة، وإن ضاق المقام في أي أرض وكان السعي في غيرها متاحاً فالسعي واجب في كل خير، سواءاً كان في طلب الرزق الحلال أم طلب العلم النافع، أو غير ذلك من المباحات التي لا تكون فيها معصية الله -عز وجل- وإن الله -عز وجل- يكرم من يسعى ويؤيده بتوفيقه ونصره.

وإننا نتعلم من هجرة الأمين المأمون -ﷺ- الحيطة والأخذ بالأسباب والتوكل على الله في كل شئ، فمن أراد التفوق العلمي فليأخذ بأسبابه، ومن أراد الزيادة في الرزق فليأخذ بأسبابها، ومن أراد الصحة في البدن فليأخذ بأسبابها، ومن أراد الزيادة في الدين والقرب من الله فليأخذ بأسبابه وليتوكل على الله، والموفق من وفقه الله عز وجل.

إننا نتعلم من هجرة الأمين المأمون -ﷺ- المحبة والتآخي بين المسلمين، والمشاركة في المغنم والمغرم، فها هم الأنصار رضوان الله عليهم يئنون لأوجاع المهاجرين والمحتجزين في مكة ويغضبون لهم، وإن لم تكن هناك عصبة دم أو قرابة، وتراهم قد شاركوا المهاجرين أموالهم ومنازلهم، وساهموا بكل صور التضامن والتكافل المجتمعي، الذي رباهم عليه الرسول الكريم -ﷺ-

وإن الدروس المستفادة من الهجرة أكبر من أن يحصرها قلم كاتب أو لسان خطيب، فهي متجددة متنوعة، معينها لا ينضب وأنوارها لا تنفد، ولا زلنا نتعلم منها الكثير من القيم الدينية والإنسانية والأخلاقية التي افتقدناها، فكل عام وبلدنا مصر وسائر المسملين بألف خير.

* * *

جملة أخلاق الصوفية

الصوفية هم فئة من الناس آثروا الحياة الربانية وتخلقوا بالأخلاق الإسلامية، واتبعوا التصوف الإسلامي الرشيد وألزموا ظواهر أمورهم باتباع ظاهر الشرع الحنيف، وبواطنهم بالتحلي بمكارم الأخلاق والمجاهدة ضد الهوى والشيطان والأخلاق القلبية الفاسدة، مثل الحقد والحسد والكبر والغرور والإعجاب بالنفس.

فالصوفية ليسوا كما يظن الغالبية، الذين يتذرعون بدعوى العلم اللدني ويخالفون ظاهر الشريعة الإسلامية، فالتصوف برئ الذمة من هذه الصفات وممن يتصفون بها، فالتصوف علم ناله مثل ما نال العلوم الإسلامية الأخرى من تدليس وتزييف، ودعوى هذا الأمر من غير أهله، فالمتصوفة هم أشد الناس حفظاً لشرع الله ورعايةً له، ففي معتقد الصوفية أن الإلتزام بشرع الله هو الخطوة الأولى في السير إلى الله، ولا وصول بغير تقوى الله واجتناب المحارم ومجاهدة النفس والشيطان، والتخلق بالأخلاق المرضية اقتداءاً بسيد الخلق رسول الله -ﷺ-.

ومن جملة أخلاقهم كثرة الإستغفار من الذنوب والهفوات التي تنقص من الإيمان، وسرعة التوبة والرجوع إلى الله بعد الإبتلاء بها، وزيادة العزم والإصرار على عدم الرجوع لها مرة أخرى، ثم صدق التوجه إلى الله في الطاعة والعبادة، وإخلاص النية لله في ذلك، ومع الخلق هم شديدوا التواضع مع خلق الله الصغير والكبير والوضيع وغير الوضيع، لا يتكبر أحدهم على غيره لأي سببٍ من الأسباب، لأنهم يعزون الفضل في كل خير لله -عز وجل-

ويتعاملون بالرحمة مع المبتلين بالمعصية، فلا يبغضونهم ولكن يدعونهم للهداية ويدعون لهم بالهداية، وهم وقَّافُونَ عند الحق سريعوا الإياب لا يكابرون في باطل، ولا ينصرون ظالماً ولا يخافون في الحق لومة لائم، وهم أهل علمٍ وفقهٍ وتقوى يمقتون الجهل، ويحثون على التعلم وأن يعمل المرء بما يتعلم، فهم في كل أحوالهم الدينية والدنيوية يقتدون بخير البرية -ﷺ-.

* * *

لا تبطلوا أعمالكم

مِن أجَلِّ المعارف التي يمكن أن يكتسبها الإنسان أن يعرف نفسه، فإن هذه المعرفة مفيدة جداً لأي إنسان على النحو الشخصي والمجتمعي، فإذا ما عرف الإنسان نفسه كان ملماً بجوانب الضعف والقوة فيها، وبسبب ذلك يستطيع أن يطور من نفسه وأن يتقدم في حياته، وأن يسير في اتجاهٍ أكثر وضوحاً وبياناً، ويتجنب أن يكون متخبطاً في حياته لا يعرف لنفسه وجهةً ولا هدف ولا معنى، ولذلك ما كذب من قال:

"من عرف نفسه فقد عرف ربه"

ذلك أنه يعلم كمال صفات ربه مقابل كل نقص في صفاته، وليس ذلك هو الغرض من الحديث.

وإن المعرفة بالصفات النفسية والشخصية للإنسان بصفة عامة، تجعلنا نقف على صفات يشترك فيها كل إنسان غالباً، ومن ذلك أن الكثير من الناس لا يكون صادقاً مع نفسه فيتصف بالمعاندة والمكابرة عند الخطأ والزلل، ويظن نفسه محسناً وهو مسيئ ومصيباً وهو مخطئ، ويختلط عليه بسبب ذلك الخطأ بالصواب، مع أنه لو تفكر

وأنصف وصَدَقَ مع نفسه لوجد الخطأ خطأً بدون التباس والصواب صواباً بدون التباس، ونعم قد يكون الخطأ والصواب مجرد تقديراتٍ نسبية تختلف من شخصٍ لآخر، لكن هناك الكثير من المعايير الواضحة التي لا يصح فيها إنكار الصواب وتبرير الخطأ، مثل المسائل الدينية والقيم الأخلاقية والقيم المجتمعية.

وإن من أبرز نتائج عدم الصدق مع النفس التباس الخطأ بالصواب أو تضييع الصواب بالخطأ، كأن يتصرف الإنسان تصرفاً مقبولاً دينياً أو أخلاقياً أو حتى عملياً، ثم يقحم عليه تصرفاتٍ خاطئة تذهب برونق وجمال السلوك الأول، كأن يزرع الإنسان حديقةً خضراء نضرة ثم يلقي فيها القمامة والمخلفات، ومن أبرز هذه الصور أيضاً والتي أراها منتشرة في الجانب التعبدي الديني، والتي كانت السبب في كتابتي هذا المقال، أن ينتظر أحدهم في المسجد بين صلاتين وهذا فعل طيب حسن لمن تيسر له ذلك، ثم أثناء مكوثه يقضي وقته في تسيير تجاراته أو أعماله في الهاتف، أو المسامرة مع آخرين في أغراضٍ لا تمت بصلة للعبادة ولا تقديس فيها لدار العبادة، الذي اتخذه الناس من أجل هذا الغرض.

ومن نتائج التخبط النفسي وجهل الإنسان بصفاته الشخصية، نجد الإنسان في محاولة إنكار لصفاته السلبية برغم يقينه الداخلي بحقيقتها، وإنسان مثل ذلك هو

بالضبط من ينطبق عليه قول الله -تعالي- **"أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنت تتلون الكتاب أفلا تعقلون"**، ذلك أن مثل هؤلاء الأشخاص ارتضوا لأنفسهم الصورة المقبولة اجتماعياً، مثل صورة رجال الدين أو الأمن أو القضاء أو التعليم ويظهرون للناس بها، ثم تكون أفعالهم على النقيض تماماً للأخلاقيات التي تمثلها الصور التي عرَّفُوا بها أنفسهم، فمثل هؤلاء على خطرٍ عظيم يشملهم أنفسهم في المقام الأول ثم لا يلبث أن يتعدى إلى مجتمعاتهم، فمن كان هذا حاله فليرجع وليصدق مع نفسه حتى ينفع نفسه أولاً، وأختم بقول الله -عز وجل- **{يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم}[محمد: ٣٣]**.

* * *

معراجك يا حبيب

إن لنا في أيام دهرنا لنفحات، وهي أيامٌ من أيام الله التي نستقبلها بالذكر والحمد والدعاء والرجاء والسرور، ومن هذه الأيامِ الأيامُ التي فيها ذكرى إسرائك ومعراجك يا حبيب الله -صلى الله عليك وسلم-، هذه الذكرى التي دلَّتنَا على قدر مقامك عند بارئك ومولاك، تلك الذكرى التي تعرفنا أنه إن ضاقت الأرض بمن فيها بالعباد فإن السماء أوسع وأهلها أفضل، ومعية الله -عز وجل- خيرٌ من الدنيا ومن فيها وما فيها.

نتعلم من هذا الذكرى الكريمة أن الله -عز وجل- لا يتخلى عن أولياءه وأحبابه، وأن المحنة تنقلب مع الصبر والرجاء منحة، وأن الشدة تنقلب مع معية الله لِسَعَةٍ، وأن العسر ينقلب برحمة الله -عز وجل- إلى يسر، وبذلك يكون الفائز هو الواثق بربه الراضي بحكمه المحب لتصرفه فيه، الذي يعلم أن الله -عز وجل- لا يبتلي إلا ليغفر أو ليُرَقِّي، فإن عند الله منازل ومقامات لا يبلغها العبد إلا بالصبر الجميل والرضا والشكر.

نتبين من هذه الذكرى تحقيق قول الله -عز وجل- **{ما ودعك ربك وما قلى}[الضحى:٣]**. وقوله: **{ولسوف يعطيك ربك فترضى}[الضحى:٥]**.

فالحِكَم والعطايا الإلهية في هذه الرحلة لا حصر لها ولاعد، وما زالت متجددة العطاء والفتح لمن يشرح الله صدره بفهمٍ جديد لمعاني هذه الرحلة الكريمة، فمن ذلك أن الله -تعالى- لا يعجزه شئ ولا يعيقه مكانٌ ولا زمان وكيف ذلك وهو خالق الزمان والمكان، وهو منشئ الكون وواضع ناموسه ونظامه، وإذا ما شاء فإنه يجري تصرفاً يخالف هذا النظام، فتعجز العقول عن الإدراك.

فكانت الليلة التي قطعت فيها في الأرض مسافة لا تقطع في العادة إلا في شهر، وفي السماء مسافة لا تقطع إلا في سنين لا تعد ولا تحصى، ولكنها مشيئة الله -عز وجل- ومن ذلك أن دعوى الإيمان ليست يسيرة، واسم المؤمن لا ينطبق على كل مسلم، فالإيمان عقيدة ويقين راسخ وصادق، لا يزعزعه شئ ولا يتخلل إليه شك، فعند وصول خبرٍ مثل خبر إسراء ومعراج الرسول الكريم -ﷺ- إلى صاحبه أبي بكر فلم يتخلله شك، وعلى الفور قال: "إن كان قال ذلك فقد صدق" فسمي -رضي الله عنه- بالصديق، فتتنبه الأمة بذلك إلى ضرورة التصديق الجازم، بما أتى به الرسول الكريم -ﷺ-.

❊ ❊ ❊

الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم جـ١

عند النظر إلي أخلاق إنسانٍ ما، أو إلى أخلاق مجموعةٍ من الناس، أو إلى أخلاق مجتمعٍ كامل، فإننا ننظر إلى العادات المعروفة والسائدة والمُحكَّمة في هذا المجتمع، وننظر كذلك إلى الظروف الحياتية للطبقات المختلفة التي تعيش في ذلك المجتمع، فعند ذلك نقف على أسباب صلاح وتقدم هذا المجتمع إن كان صالحاً ومتقدماً، ونقف كذلك على أسباب فساده إن كان فاسداً.

وعند النظر إلى المجتمع الجاهلي إبَّان ظهور الدعوة الإسلامية، نجد أنه كان مزيجاً غريباً من الأخلاق وأضدادها، فنجد الكرم والنخوة والوفاء بالعهد، والتعفف عن كل ما يشين سمعة الإنسان، ثم نجد العكس تماماً، فنجد شرب الخمر وانتشار الفحش والفجور، والإغارة على أموال وأعراض من ليس له نسب ومال، ونجد في ذلك المجتمع أن كفة الفساد أرجح وأوضح.

وإذا كان المجتمع كذلك، وكانت البيئة التي ينشأ فيها أحدهم بهذه الصورة، فإنه مع تعاقب الأجيال تزداد كفة الفساد رجحاناً، ولذا كان من العجيب والفريد

خروج أفرادٍ من بين هذا المجتمع، فيهم حسن الأخلاق والشمائل، والتعفف الكامل عن الفجور، والعبادة والتبعية العمياء لأحجار لا تضر ولا تنفع، فكان النموذج الأمثل من هذه النماذج الفريدة الطاهرة، التي خرجت من رحم هذه الظروف الإجتماعية، هو الصادق الأمين ﷺ.

فقد كان -ﷺ- قبل بعثته بالإسلام هادياً ومبشراً ونذيرا، صاحب أخلاقٍ دمثةٍ وشمائل كريمة، فكان لا يسجد ولا يتعبد لصنم، ولا يشرب خمراً، ولا يحضر مجلساً فيه لهوٌ وصخب وإخلالٌ بالمروءة، وكان عفيفاً كريماً يعين صاحب الحاجة، ويدفع الجوع عن صاحب الفاقة، وكان صادق الأقوال أميناً على الأعراض والأموال، فكان أحق أن يتحاكم إليه الناس في قضاياهم، فكان الموقف العظيم بعد إعادة بناء الكعبة، والشهادة الصادقة في حقه -ﷺ- فقالوا: "ذلك الأمين ارتضيناه".

وكان -ﷺ- صاحب همةٍ عاليةٍ تبغي الكمال والجمال، لاحت بوادر هذه الهمة في سنين حياته الأولى، حينما أبى أن يكون عالة على عمه أبي طالب، فخرج ليعمل وليقوم على حاجته بنفسه وليعين عمه، فكان صاحب اليد العليا، وها هو أيضاً يعمل تاجراً قبل وبعد زواجه بأم المؤمنين السيدة خديجة -رضي الله عنها- فلم يكن يرضى أن يكون لأحدٍ منةً عليه، وهذا من كرم النفس وعلو الهمة، ثم بعد استقرار حياته -

ﷺ- يكون صاحب همةٍ في العبادة، فهذه النفس السوية بين جنبيه والتي أنكرت عبادة الجاهلية، تسعى لسلوك طريق العبادة القويم السليم، فكان يتعبد بحنيفية جده إبراهيم الخليل -عليه السلام- وجعل مكان عبادته غار حراء، يتكبد صعوبات التسلق ومواجهة الأخطار، مثل خطر اللصوص والأفاعي والعقارب وكل ذلك في سبيل الخلو بربه، وهذا من الهمة العالية.

* * *

الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم جـ٢

إن كل مرحلةٍ من مراحل حياة الصادق الأمين، والرسول الكريم -ﷺ- لها مظاهر مختلفة وألوانٌ متنوعة، من الهمة العالية والعزيمة الصادقة، والنفس السوية الكريمة، وفي المقال السابق تناولنا بعضاً من مظاهر همته -ﷺ- في حياته قبل البعثة، أما عن حياته بعد البعثة فلها ألوان مختلفة من الهمة والشمائل الكريمة.

وقد ذكرنا أن من جوانب همته -ﷺ- تحديه للصعوبات ومواجهته للعقبات والمخاطر، وكل ذلك في سبيل سلوك المنهج الإبراهيمي الحنيف في العبادة، وهو منهج التفكر والتدبر، فلم يقبل الرسول الكريم -ﷺ- عادات قومه في العبادة، لأنها ببساطة شديدة تتنافى مع الفطرة والعقل الذي ميز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات، فليس من العقل أبداً التوجه بالعبادة لآلهة يتم صنعها يدوياً، لا تملك الدفاع عن نفسها فضلاً عن غيرها، وهو بذلك يسلك مسلك جده الخليل -عليه السلام- حينما أنكر عادات قومه في العبادة، واهتدى إلى الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثم كان ذلك التغير الكبير في حياته -ﷺ- والنقطة الفارقة في تاريخ العرب وسائر الأمم، حينما بُعِثَ -ﷺ- نبياً وأُمِرَ بتقويم الملة السمحاء، فكان أول مظهر من مظاهر هذه الهمة، شجاعته -ﷺ- في البلاغ عن ربه، ولنا أن نتصور الحالة النفسية في مثل هذا الموقف، فإذا ما أراد أحدٌ من الناس أن يدعوا لنبذ عادةٍ اجتماعية، وكانت هذه العادة متأصلة تتنافى مع العقل والأخلاق، فإنه يلاقي العنت الشديد ويلقى من الأذى ألواناً، فما بالك بمن يدعوا لنبذ العقيدة والعبادة، التي يتعبد بها القوم سنين عديدة ومديدة.

فلو تصور أحدٌ مدى الأذى الذي سيتعرض له، فإنه سيُحجِمُ فوراً، وهنا كانت نفسه الشجاعة -ﷺ- حينما حمل على عاتقه هذه المهمة، وتحمل الأذى في سبيلها، وكانت همته -ﷺ- بارزة في هذه المرحلة العصيبة من حياته، حينما استمر القوم في مخالفته، والمبالغة في حربه وإذايته، ومحاولة الضغط عليه بشتى الوسائل، حتى يرجع عما يدعوا إليه، فحاولوا إغواءه بالمال والنساء، والسيادة والزعامة فلم يفلحوا، وقد علموا من قبل أن مثل هذا الرجل، الذي قالوا عنه "هذا الأمين ارتضيناه"، لا تفلح معه شهوات النفس.

ثم حاولوا الضغط عليه بالتضييق على أصحابه وأتباعه، فعرضوهم للضرب والتعذيب، من أجل أن يقوم بالإشفاق عليهم ويرجع عما يدعوا إليه، فلم يفلحوا لأن القضية أكبر وأعظم من ذلك، ثم حاولوا الضغط عليه بتأليب عشيرته عليه فضيقوا على بني هاشم من أجل أن يقاطعوه فيكون البطش به سهلاً على قريش، فلم يفلحوا لأنه كان أكرم على عشيرته من ذلك ولو خالفوه في الرأي، فثبت -ﷺ- على مبدأه.

ثم كانت همته في العفو عمن تسببوا في أذيته، وقد كان يقدر على إهلاكهم بإذن ربه، إلا أنه كان يرجوا أن تكون الأجيال القادمة، أكثر وعياً وأحكم عقلاً وأسدُّ رأياً، فينبذون العبادة العمياء، لأصنامٍ لا تضر ولا تنفع، وينبذون مكاره الأخلاق، التي كانت سائدة، وإن مجرد عفوه -ﷺ- عمن أساء إليه، مع القدرة على عقابه، لهو لونٌ من ألوان القوة أشد من أي لونٍ آخر، فهو يدل على كرم النفس وضبط المشاعر، وصدق الرسالة الدينية والأخلاقية، التي بُعِثَ بها -ﷺ-

{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[الأنبياء: ١٠٧].

* * *

الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم جـ٣

تكلمنا عن بعض مظاهر الهمة في حياة الصادق الأمين -ﷺ- في المقال الأول، والتي كانت متمثلةً في حياته -ﷺ- قبل البعثة، وفي المقال الثاني تكلمنا عن بعض مظاهر همته -ﷺ- في حياته في مكة بعد البعثة، وأتحدث معكم اليوم في هذا المقال عن حياته -ﷺ- بعد هجرته إلى يثرب، وتنويرها بمقدمه -ﷺ- حتى صارت المدينة المنورة.

لقد قدم الرسول الكريم -ﷺ- إلى المدينة وفيها مجتمع متعدد الاتجاهات، فهناك الأوس والخزرج، وهما قبيلتان يمنيتان ترجعان إلى نسبٍ واحد، إلا أن الفتن كثرت بينهما وأدت إلى حروبٍ وقتالاتٍ عديدة، وكان هناك أيضاً اليهود الذين سكنوا المدينة منذ زمنٍ بعيد، وكانوا من بقية اليهود الذين هربوا من البطش والاضطهاد، وهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، ثم هناك فئة أخرى من اليهود يسكنون قريباً من المدينة، وهم أهل حصن خيبر.

لم يمكث الرسول الكريم -ﷺ- في المدينة، حتى حملته نفسه الكريمة وهمته العالية، وشخصيته القيادية بدعمٍ إلهيّ، على أن يرتب أحوال هذا المجتمع، وأن يضع الضوابط والقوانين التي تُنَظِّمُ الحياة فيه، فكانت وثيقة المدينة التي وضعها -ﷺ- والتي اشتملت على تنظيم العلاقة بين المسلمين مهاجرين وأنصار، وتنظيم العلاقة بين المسلمين ومن جاورهم من أهل الكتاب اليهود.

وإن القدرة على تنظيم مثل هذا المجتمع وإنهاء الحروب والصراعات التي كانت بينهم، لَتَدُلُّ دلالةً واضحةً على أن واضع هذا النظام إنسانٌ عظيم صاحب همةٍ عالية، ولماذا يدل ذلك على الهمة العالية؟ ذلك أن الإنسان في العادة يواجه صعوبة في تنظيم أهل بيته وأسرته، ولا تنضبط العلاقة بين أفراد هذا البيت وهذه الأسرة التي هو ربٌ لها بشكلٍ تام، فما بالك بمن ينظم مجتمعاً كاملاً فيه مئات الأسر والأعراق المختلفة، ثم ترى هذا المجتمع يمتثل لهذا النظام وهذه التشريعات، اللهم إلا فئةً قليلةً ممن يبغون الفتنة والفساد في الأرض، ولم يمكثوا طويلاً فسرعان ما فشلوا.

ولم يَطِب المكوث كثيراً في المدينة بعد استقرار الرسول الكريم -ﷺ- والمهاجرين فيها، فلم يلبثوا حتى تعرضوا للبغي والعدوان من قريشٍ والمنافقين، ومؤامرات اليهود وصعاليك العرب، الذين سيقضي وجود دولةٍ مسلمةٍ على مقربةٍ

منهم على وجودهم و ضياعهم وكسر شوكتهم، فما كان من النبي -ﷺ- إلا أن يُعِدَّ العدة لحربهم وقتالهم، فتعددت المعارك بينه وبينهم، تارةً تكون الغلبة للمسلمين وتارةً لغيرهم.

وكانت همته -ﷺ- متمثلةً في شجاعته وحسن تنظيمه، وتقديم حسن الأخلاق وتغليف القتال بغلاف الشيم الكريمة والرحمة الشاملة، ففتح القلوب قبل أن يفتح البلاد، ولا أدل على ذلك من موقفه -ﷺ- في فتح مكة، وتمكين الغلبة للنبي -ﷺ- ومن معه، فلم يسفك الدماء ولم ينتقم ممن آذوه وبغوا عليه، ولم يعذبهم ولم يستعبدهم، ولكنه واجههم بحسن أخلاقه وكرم شمائله وواسع عفوه، فكانت المقولة الخالدة التي فتحت القلوب: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

وفي هذا العفو مع القدرة على العقاب همةٌ عالية، فمن ذا الذي يعفو عمن تسبب في إيذاءه وموت أقاربه، وتغريبه عن بلده وأهله وماله، غير إنسانٍ عظيم يحمل بين جنبيه نفسًا كريمة وهمةً عالية، حملته على تبليغ الرسالة وتقويم الملة، وحمل الناس على المنهج السليم في الحياة والتعامل فيما بينهم، فكان -ﷺ- للعرب وللمسلمين بحقٍ، رسولاً من أَنفَسِهِم، عزيزٌ عليه ما يُعَنِّتُهُم، حريصٌ عليهم، بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم.

❊ ❊ ❊

وما كفر سليمان

عبدٌ من عباد الله قرَّبَهُ الله واصطفاه وآتاه النبوة والملك والحكمة والعلم، هو سيدنا سليمان بن داوود -عليهما السلام- من أشهر أنبياء بني إسرائيل أتاه الله -عز وجل- مُلكاً عظيماً فلم يَكُن لأحدٍ حُكمٌ مثل حُكمِهِ ولا جيشٌ مثل جَيشهِ، غير أنَّه لم يَسلَم من سوء أدب بني إسرائيل مع أنبيائهم، فادَّعَوا أنَّه كان يُمَارِسُ السحر حتى وصل إلى ما وصل إليه فبرأه الله -عز وجل- من فِريتهم فقال تعالى: **{وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا}[البقرة: ١٠٢].**

وبعد افتراء بني إسرائيل على سيدنا سليمان -عليه السلام- طاله الأذى من بعض من لا يعلمون من أمة حبيبنا المصطفى -ﷺ- فأوردوا عدة حكايات عنه على سبيل الوعظ لا تليق أبدا بمقام النبوة، وقبل إيراد الحكايات وتفنيدها على كل إنسان أن يعلم أن أنبياء الله -عز وجل- تم اختيارهم بعناية شديدة ورَبَّاهُم المولى -عز وجل- تربيةً خاصة، فهم بشرٌ ولكنهم بلغوا أعلى مراتب الكمال الأخلاقية وتجملوا بأسنى الشمائل والصفات، وهذه هي عقيدتنا في أنبياء الله -عز وجل- لذا كان من

الضروري التثبت من صحة أي حكاية يتم تداولها عنهم، حتى لا يقع الإنسان في دائرة المعتدين على مقام النبوة.

من أشهر هذه الحكايات وهي متداولة بكثرة، تلك الحكاية التي مفادها "أن سيدنا سليمان -عليه السلام- كان راكباً فوق بساطه فَمَرَّ على مُلكِهِ، فدخل إلى نفسه شَيْءٌ من العُجبِ لِعَظمَةِ هذا المُلك فاختل البساط من تحته، فقال للبساط استقم فرد عليه البساط بل استقم أنت إنما أطعناك بطاعتك لله".

وهذه الحكاية على قدر ما فيها من معانٍ إيمانيةٍ جليلةٍ من التواضع لله -عز وجل- إلا أنها مسيئة لنبي الله سليمان، فكيف نتصور أن الصالحين من الأمة يدفعون مشاعر الكبر والإعجاب بالنفس عن أنفسهم ثم نرى ذلك لائقا بأحد أنبياء الله وهم أعلى شأنا وأجل معرفة بفضل الله عليهم، فلا يستقيم أن نعظ الناس بإساءة الأدب مع أنبياء الله -عز وجل-.

* * *

الصادق الكاذب والشاهد الغائب

يتردد كثيراً على مسامعنا خبر موت فلان وفلان من أهل الحي، وفلان وفلان من الأقارب، وفلان وفلان من الشخصيات العامة، وفلان وفلان في المسلسلات والأفلام، مما يجعل الإنسان في حالٍ من التفكر في فلسفة الموت ووقعه المختلف على الإنسان كفرد وعلى الجماعات، فكان أصدق وصفٍ له خطر في بالي أنه الواقع الصادق والكاذب، وهو الرفيق الحاضر دائماً والغائب، وهو الحق الثابت دائماً والمنكر، هذا ببساطة هو الموت.

الموت في العادة مكروهٌ لذاته عند الأفراد والجماعات ثقيلٌ على المسامع صعبٌ على الأفهام، لكنه في شريعة الإسلام لا يتصف بكل ذلك، فهو عند أهل الإيمان محبوبٌ غير مكروه لأنه وببساطة انتقال من الحياة الزائلة إلى الحياة الباقية، وهو الباب الذي يعبرون منه للقاء الله -عز وجل- محبوبهم الأعظم ومعبودهم المطلق، وعند آخرين هو راحةٌ من عناء الدنيا وشقاءها، وأولئك يختلفون عن الذين تعبوا من الحياة وليس لهم من أنفسهم إيمانٌ ويقين ورضا بقضاء الله -عز وجل-

وإذا كان الموت حقيقةً ثابتة وشاهدٌ حاضر ولا ينكره إنسان، فما الداعي من إنكاره رغم حقيقته وتجاهله رغم حضوره، أليس ذلك من الحمق بمكان؟ بلى هو كذلك، وإذا سلمنا أن ذلك من الحمق أليس الحضور الدائم للموت في ذهن الإنسان يدفعه إلى اليأس والخمول، وعدم إعمار الأرض وعدم السعي على الرزق وتحقيق الإنجازات الحياتية اللازمة؟ ألا يدفع ذلك الإنسان إلى النظر إلى عدم الجدوى من هذه الحياة؟ بلى هو كذلك.

إذاً نحن في مأزقٍ فكري وجودي حقيقي، فالغفلة عن الموت حمق ومن أسباب البغي والظلم، كما أن حضوره الدائم في الذهن يوقف مجرى الحياة، وهنا تتجلى عظمة الشريعة الإسلامية، فالإسلام دين يدعوا إلى التوسط في كل شئ، ومن أهم هذه الأشياء طريقة التفكير.

فالإسلام قد أقر بأهمية تذكر الموت لأن ذلك يساعد في كف الإنسان عن الشرور، ولكن يضبط ذلك أن يكون تذكره من حينٍ لآخر، وأن تكون النظرة للموت باعتباره قنطرة يعبر منها الإنسان من حياةٍ لحياة، وبعد ذلك فعلى الإنسان أن يلتفت إلى حياته فيعمرها ويسعى لكل إنجازٍ وتقدمٍ تنتفع به البشرية.

وختاماً فإن الموت ليس وحشاً مفترساً يتربص بالإنسان ليفتك به كما يتصور البعض، فمن المسلمات البديهية في الكون أن من كانت له بداية فحتماً ستكون له نهاية، وليس الإنسان استثناءاً من هذا الناموس، فكما تكون بداية الإنسان في هذه الحياة بالولادة فإن نهايته بالموت، وهذا هو الموت بكل بساطة.

* * *

حلاوة الطاعة سمٌ قاتل

الناس في المعصية والطاعة يكون الواحد منهم بين حالين: فتارةً تهزمه نفسه وشيطانه فيعصي الله -عز وجل- وتارةً يهزم هو نفسه وشيطانه فيقوم بطاعة الله -عز وجل- ومن المعلوم أن الطاعة لها حلاوةٌ يشعر بها من كانت أغلب أحوالهم في رضا الله -عز وجل- وكذلك المعصية لها حلاوتها ويشعر بها من كانت أغلب أحوالهم معصية لله -عز وجل- فلكل حلاوته.

ولكن ما الفرق بين حلاوة الطاعة وحلاوة المعصية؟ والجواب على ذلك أن حلاوة المعصية قصيرةٌ جداً ويعقبها ندمٌ واستحقار للذات، أما حلاوة الطاعة فيستمر الشعور بها طويلاً ويعقبها رضاً يشعر به الإنسان في داخله، وهو ما يسمى بالسلام الداخلي.

غير أن الطاعة في حد ذاتها قد تكون باباً للمعصية، وفي أقل تقدير تكون سبباً في التقصير في عبادة الله -عز وجل- ذلك أن الإنسان بسبب أحوال طاعته لله المستمرة والمتكررة، يحصل في نفسه نوعٌ من الإعجاب بالنفس والذي يتبعه بالضرورة

التكبر، ويكون تكبره على نوعين من الناس: وهم الأقل جهداً في الطاعة، والمبتلين بمعصية الله -عز وجل- وذلك بحد ذاته بابٌ من أبواب المعصية.

فالتكبر والإعجاب بالنفس من محبطات الأعمال، ومن أسباب سقوط الإنسان من عين الله -عز وجل- ومن أجل ذلك كان من الواجب على كل إنسان أن يعلم تمام العلم، أن حال الطاعة توفيق من الله -عز وجل- ونعمة فيسأل الله استمرارها وزيادتها، وأن حال المعصية ابتلاءٌ فيسأل الله -عز وجل- المعافاة منه ويلجأ إلى التوبة، ثم ينظر بعد ذلك لغيره من المبتلين بعين الرحمة، فيدعوا الله لهم بالتوبة.

وهناك فريقٌ من الناس دعتهم المحبة لله -عز وجل- لبلوغ معانٍ سامية في العبادة، فلا يريدون من العبادة إلا وجه الله -عز وجل- والقرب منه، ولسان حالهم يقول: " إلهي أنت مرغوبي ورضاك مطلوبي" ويوجد أبيات منسوبة للسيدة رابعة -رضي الله عنها- تعبر عن حال الواحد منهم، وهي الأبيات التي تقول:

"عَرَفْتُ الهَوى مُذ عَرَفْتُ هواك * وأغْلَقْتُ قَلْبي عَمن سواكا

وقُمْتُ أُناجِيـكَ يا مَن تـَرىٰ * خَفايا القُلُوبِ ولَسْنا نراك

أُحِبُّكَ حُبَيْنِ حُبَ الهَـوىٰ * وحُبْ لأنَكَ أهْـلٌ لـِذَاك

فأما الذي هُوَ حُبُ الهَوىٰ * فَشُغْلِي بِذِكْرِكَ عَمَنْ سِـواكْ

وامّـا الذي أنْتَ أهلٌ لَهُ * فكشفك الحجب لي حتى أراكا

فلا الحَمْدُ في ذا ولا ذاكَ لي * ولكنْ لكَ الحَمْدُ فِي ذا وذاك"

غير أن هؤلاء يدركون أن الاستغراق في التلذذ بالطاعة والشعور بحلاوتها، يجعل الإنسان مطيعاً فقط من أجل هذا الشعور، فيكون حاله مثل حال المدمن، وعندما تكون رغبة الإنسان في الطاعة من أجل ذلك الشعور، فهو ينسى بذلك المعنى من طاعته وهو القرب من الله -عز وجل- فيكون بذلك مقصراً ومن هنا قالوا: "حلاوة الطاعة سم قاتل".

* * *

لا تجعلوا القرآن عرضة لما شجر بينكم

هو كتاب الله -عز وجل- فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا، ما حكم به أحدٌ وضل، هو حبل الله المتين من استمسك به نجا ومن أفلته هلك، هو صمام أمان الأمة بعد انتقال الحبيب المصطفى -ﷺ- حيث قال: **"تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي"**

وهو منبع الأسرار والأنوار والخيرات، هو النهر الذي لا تنضب روافده ولا ينفد لؤلؤه فيه شفاءٌ للناس.

وقد ورد في إحصائية أن نسبةً كبيرةً من تعاليم القرآن الكريم تدور حول المعاملات ومكارم الأخلاق، وفي ذلك دلالة على أهمية هذه الأخلاق في المعاملات بين الناس، غير أن هناك الكثير ممن تزينوا بلباس أهل العلم والدين، قد جعلوا القرآن وسيلةً وأداةً لتبادل السباب فيما بينهم، وهذا فضلاً عن أنه مخالفٌ لتعاليم القرآن في منع السباب، فهو ازدراءٌ لكتاب الله -عز وجل- وهذه جريمةٌ غير مقبولة.

فصدق في مثل هؤلاء قول القائل: "رب حاملٍ للقرآن والقرآن يلعنه" بمعنى أن القرآن يجرم ويحرم الكثير من الأفعال، التي يرتكبها هذا الشخص.

إنك تجد الرجل من هؤلاء إذا كنت مخالفاً له في رأيٍ أو وجهة نظر، يوظف آيات القرآن الكريم ليقوم بالسباب من خلالها، فتراه مثلاً يقول: "سلاماً سلاماً" نظراً لقول الله -تعالى- **{وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما}[الفرقان: ٦٣]**. فهو بذلك يقول لك أنت جاهل، ودافعه لذلك مجرد خلافك معه في الرأي.

وكان العلماء يقولون: "السباب بضاعة المفلس" لذا فمن كان حظه في العلم قليلاً يلجأ إلى السب والطعن في الطرف الآخر، ويتخذ هؤلاء القوم آيات القرآن الكريم وسيلةً لذلك، فعلينا أن نجل كتاب الله -عز وجل- عن مثل هذه المهاترات.

وختاماً فإن من حسن الأدب عدم اللجوء إلى السب والطعن في الطرف المخالف، فهذا فضلاً عن أنه يتسبب في نتائجٍ عكسية فهو مخالف لتعاليم الدين الحنيف، فالله -عز وجل- قد أمر بترك السباب مع المخالفين في العقيدة، فقال -تعالى- **{ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم} [الأنعام: ١٠٨]**.

فما بالك بمن يخالفك الرأي، فإذا ما كنت متصدراً للتعليم أو الفتوى أو الوعظ فأدب نفسك جيداً، وليكن عندك إجلالٌ وتوقيرٌ لشعائر الله فإن ذلك من أمارات التقوى عند الإنسان.

* * *

بالتي هي أحسن

طالما شدَّدَ أهل العلم والفكر على مر العصور وكرِّ الدهور على أهمية الاتصاف بالأخلاق الكريمة، لما في ذلك من صلاح حياة الأفراد والمجتمعات، والذي يؤدي بدوره إلى حالةٍ من الاستقرار العام، تدفع الإنسان للتقدم والرقي في كافة المجالات، مما يصل بنا في النهاية إلى دولةٍ مزدهرة، تمتلك من القوة ما يكفي لأن تكون لها كلمةٌ مسموعة، وتنصر الضعيف وتأخذ على يد الباغي.

ولا يزال كل صاحب قلمٍ شريف ينبه مِراراً وتَكراراً على ضرورة وحتمية إرساء المنظومة الأخلاقية، وبما أن الأديان قد أتت بمكارم الأخلاق، فللإسلام في هذا الشأن النصيب الأوفر والقَدَحُ المُعَلَّى، وفي أجيال المسلمين المتعاقبة نماذجٌ أخلاقية مشرفة، استقت أخلاقها من توجيهات الإسلام.

وقد كان نبينا -ﷺ- أكرم الناس أخلاقاً وأحسنهم شمائلاً، مما دفع الكثير ممن كانوا يعادونه إلى التصديق برسالته، واتباع الدين الذي جاء به من عند ربه -جل في

علاه-، والمواقف التي أظهر فيها رسول الله -ﷺ- حسن أخلاقه لا تعد، فقد كانت حياته كلها أخلاق وشمائل.

يحضرني منها ذلك المشهد الذي رافق فيه رسول الله -ﷺ- امرأةً كبيرةً في السن، يحمل عنها متاعها حتى وصلت لدارها، فلم تجد ما تكافئه به على حسن أخلاقه وشمائله، إلا أن تعطيه نصيحةً تنفعه في حياته، وكانت هذه النصيحة أن لا يستمع لقول رجلٍ بمكة اسمه محمد، يدعي أنه نبي ويفرق بين قومه.

فلما علمت بأنه هو محمد نفسه، أدركت بحسن فطرتها أن ما يقال عن هذا الرجل، وما رأته هي من حسن أخلاقه لا يتفقان، ويلزم من ذلك أنه صاحب دعوةٍ صادقة، فما كان منها إلا أن أسلمت واتبعت.

إن مثل هذه التصرفات من مجازاة السوء بالإحسان، دفعت كل من تشربت نفسه بهذا الدين أن يتصف بها، مما أدى إلى هداية الكثير ممن كانوا على ضلال، وإلى توبة الكثير ممن كانوا على معصية، وتحضرني هنا حكاية عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان -رحمه الله- فقد رُوِيَ أنه كان له جارٌ يسهر الليالي يشرب الخمر، وينشد قول الشاعر:

"أضاعوني وأي فتى أضاعوا * ليوم كريهة وسداد نحر"

وكان الإمام النعمان ممن يسهرون لقيام الليل فكان يزعجه ذلك، إلا أنه صبر واحتسب ولم ينهر الرجل، حتى كان اليوم الذي لم يسمع فيه صوت الرجل فتفقده الإمام، فعلم أن الشرطة قد ألقت القبض عليه وهو الآن في الحبس.

فذهب الإمام ليلاً إلى الأمير فاستقبله الأخير بحفاوةٍ بالغة، وطلب منه الإمام أن يفكوا قيده ففعل الأمير، وفك قيد كل من قُبِضَ عليه في هذه الليلة معه إكراماً لأبي حنيفة، فذهب الإمام إلى الرجل وقال له هل أضعناك؟ فقال له الرجل متأثراً لا والله بل كنت خير جارٍ وخير صاحب، واشهد على توبتي وأني لا أرجع لما كنت عليه، وبعد ذلك أعطاه الإمام مبلغاً من المال يتاجر به، ويقيم لنفسه حياة جديدة.

إن الأخلاق الحسنة من الشمائل العظيمة التي يمكن للإنسان أن يتحلى بها، وهي التي تتسبب في تغيير الطباع الحادة والأخلاق الذميمة، ويكفي أنها تكون سببا لرضا الله -عز وجل- وسبب القرب من رسول الله -ﷺ- يوم القيامة.

وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه سيدنا جابر -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: "إن من أحبِّكم إليَّ، وأقربِكم مني مجلسًا يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا،

وإنَّ أبغضَكم إليَّ، وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون"، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: "المتكبِّرون" [رواه الترمذي وقال: حديث حسن].

والاتصاف بهذه الأخلاق السامية أمر ليس بالهين على أي أحد بل هو أمر شاق وجاه عظيم لا يوفق إليه الكثير وصدق الله -تعالى- إذ يقول:

{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)}[فصلت: ٣٤-٣٥].

* * *

صِنَاعَةُ الفَتوَى

في لقاءٍ على قناة دي إم سي، استضاف الإعلامي رامي رضوان، فضيلة شيخنا الدكتور أسامة الأزهري، وأشار شيخنا إلى أن جوجل صار سَلَفِيَّ المِزَاج إخوانِيَّ الهوى، والمُراد من ذلك أنه إن أراد أحدهم أن يبحث عن فتوى في أي شأنٍ، أو حكمٍ في مسألةٍ دينية، فأول ما يظهر له هو مواقع مثل "إسلام ويب وابن باز وغيرها".

وبسبب ذلك خرج معدومي الأدب صِغَار العقول، يتطاولون ويسبون الدكتور أسامة، مُظهِرِينَ بذلك طبيعة أخلاقهم وتربية آبائهم لهم، وبدون فهمٍ أو إنصافٍ أو أي منهجٍ علمي للنقاش والحوار.

ومشكلة هذه المواقع تتمثل في أنها فاقدة للصنعة العلمية وأبسط آليات صناعة الفتوى، ففوراً نرى فتاوى لا تُعَبِّر إلا عن جهلٍ بنصوص الشرع الشريف، وتُسَاهِمُ في الفوضى المجتمعية وينتج عنها تطرفين:

الأول: يتمثل في أصحاب الفكر الحركي.

والثاني: يتمثل في التوجهات الإلحادية.

وقد أَجْرَتْ دار الإفتاء المصرية دراساتٍ وأبحاثٍ عن آليات صناعة الفتوى عند هذه المواقع، فوجدوا أنهم ليس لديهم أدنى إلمامٍ باللغة العربية، من ألفاظٍ حقيقة وأخرى مجازية، ولا أدنى إلمامٍ بعلم أصول الفقه، فلا يعرفون الناسخ من المنسوخ، والمطلق من المقيد، والخاص من العام، وغير ذلك من العلوم التي تُعِينُ على صناعة الفتوى.

وقد كان العالم المجتهد قديماً بعدما يُتقِنُ العلوم الشرعية الإثناعشر إتقاناً تاماً، إذا أراد أن يستخرج فتوى معينة في أي أمر، فإنه يبحث في نصوص القرآن كاملاً عن كل آية تناولت هذا الأمر إشارةً أو تصريحا، ثم في نصوص الحديث الشريف إشارةً أو تصريحا، ثم أقوال الصحابة والتابعين، ثم بعد ذلك يُفَنِّدُ الشواهد التي بين يديه، فَيُحَدِّدَ النَّاسِخَ من المنسوخ، والمطلق من المُقَيَّد، والخاص من العام، حتى يتوصل بعد ذلك للحكم الذي يطمأن إليه.

ومن هنا يَتَبَيَّنُ لنا أهمية وضرورة عدم أخذ الفتوى من مثل هذه المواقع الغير منهجية، ولدينا والحمد لله مؤسسات منهجية علمية، لها قَدَمٌ راسخة في صناعة الفتوى، مثل دار الإفتاء المصرية ومركز الأزهر للفتوى.

* * *

المَالُ الصَّالِحُ والرَّجُلُ الصَّالِحْ

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن العاص -ﷺ- قال: " بعَث إليَّ رسولُ اللهِ -ﷺ- فقال خُذْ عليك ثيابَك وسلاحَك ثمَّ ائتِني قال فأتَيتُه وهو يتوضَّأُ فصعَّد فيَّ البصرَ ثمَّ طأطأ فقال إنِّي أُريدُ أن أبعَثَك على جيشٍ فيُسَلِّمَك الله ويُغْنِمَك وأرغَبُ لك مِنَ المالِ رَغبةً صالحةً فقلْتُ يا رسولَ اللهِ ما أسلَمْتُ مِن أجلِ المالِ ولكنِّي أسلَمْتُ رغبةً في الإسلامِ وأنْ أكونَ مع رسولِ اللهِ -ﷺ- فقال يا عمرُو نِعِمَّا بالمالِ الصَّالحِ للمَرءِ الصَّالحِ".

وقد ورد إلينا في تاريخنا الإسلامي عن الكثير والكثير من الناس، الذين اجتمع لديهم الحال الصالح والمال الوفير، فمن الأنبياء -عليهم السلام- ورد أن الخليل إبراهيم -عليه السلام- كان كثير الأنعام، وكان يحب إكرام الضيف ويبذل لضيوفه القدر الكبير جداً من العطاء.

وكان نبي الله داوود ونبي الله سليمان -عليهما السلام- ممن اجتمع لديهم ملك الدنيا والنبوة، فكانت مملكة نبي الله سليمان -عليه السلام- لا مثيل لها قوةً وحضارةً

ومواردا واقتصاداً، وكان نبي الله يوسف -عليه السلام- من أكثر أهل مصر غِنَىً، فقد كان عَزِيزَ مِصر في زمنه والْمُتَحَكِّمَ الأَوَّلَ في مواردها وإدارتها، وكان نبينا محمد -ﷺ- ميسور الحال جداً من عمله بالتجارة ونصيبه من مغانم الحرب، غير أنه كان يحب العطاء جداً قبل وبعد نبوته.

ويوجد من الصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- من كان صاحب مالٍ وفير ومعروفٌ بالغنى، أشهرهم سيدنا عثمان بن عفان -رضي الله عنه- الذي جَهَّزَ لوحده بماله الخاص نصف جيش العسرة، واشترى بئر رومة، وتصدق بقافلة تجارية كاملة للفقراء والمساكين، حتى قال فيه نبينا -ﷺ- "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم" وكان من هؤلاء الصحابة الكرام أيضاً سيدنا عبدالرحمن بن عوف -رضي الله عنه - فقد عُرِفَ عنه غِنَاهُ وكثرةُ ماله.

ونجد كذلك من سلفنا الصالح من العلماء خاصةً من كان صاحب علمٍ جليل القدر وصاحب مالٍ وفير، فمن هؤلاء الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان -رضي الله عنه- فقد كان يعمل تاجراً مع علمه، ومن هؤلاء أيضا الإمام الليث بن سعد -رضي الله عنه- فقد عُرِفَ عنه الغنى الشديد، لدرجة أن موارده السنوية قُدِّرَت بمليارات بمقاييس الزمن الحالي، وكان صاحب علمٍ وفضلٍ لا يجحدهما أحد حتى قال الإمام الشافعي -رضي الله عنه -

"كان الليث أفقه من مالك، غير أن أصحابه ضَيَّعُوه فلم يُدَوِّنوا علمه كما فعل أصحاب مالك".

والحاصل أن الغنى ووفرة المال لا تتعارض مع أن يكون الإنسان صاحب علمٍ أو صاحب حالٍ صالحة، بدليل قول الحبيب المصطفى -ﷺ- في أول المقال، وبدليل شاهد الواقع، فوجود المال الوفير لا ينفي عن أحدهم صفة الزهد، فحقيقة الزهد أن تكون الدنيا خارج قلب الإنسان ومشتهياته، ولو كان أغنى أهل الأرض.

لذا فعلى من يعترض على وفرة المال لمن عُرِفَ عنه العلم أو صلاح الحال، أن يدرك أن كثرة المال هي توفيقٌ من الله -عز وجل- أولاً، ثم هي بعد ذلك حالة ترجع لأسباب دنيوية بحتة من عملٍ وتجارة، فلا ارتباط لها بالشرع إلا من حيث طريقة الكسب والتحصيل، وحق اليتامى والزكاة والمساكين، فمن أراد الغنى فليطلب أسبابه وليتعلم أساليب التجارة التي تتفق مع شرع الله، وليَكُفَّ عن حسد غيره والخوض في عرضه، فذلك أزكى له وأسلم.

* * *

مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي المعظم

أقبل علينا شهر ربيع المبارك الأنور، الذي ثَبَتَ فيه مولد النبي المصطفى والرسول المجتبى -ﷺ- والذي يحتفل فيه المسلمون منذ القرن الرابع الهجري، بذكرى ميلاد النبي الكريم -ﷺ- ويتجَدَّدُ فيه الخلاف بين المتصدرين للوعظ والدعوة، ما بين من يجعل الاحتفال بهذه الذكرى الكريمة داخل معنى قوله -ﷺ- "..وكل بدعة ضلالة".

ومن يجعل الاحتفال بهذه الذكرى الطيبة مظهراً من مظاهر حب النبي الكريم -ﷺ- الذي أنقذ هذه البشرية من ظُلُمات الشرك بالله -عز وجل- وفساد الأخلاق، إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، وأسَّسَ النظام الحياتي الذي تستقيم به حياة العالمين.

وقد سائني جداً مدى الحِرصُ الشديدُ على إنكار مشروعية الاحتفال، بمولد وذكرى الحبيب محمد -ﷺ- حتى وصل الأمر بالبعض، إلى رمي من يحتفل بالشرك المُخرِجِ من الملة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمُطَّلِعُ على كلام علماء الأمة الأكابر في شأن المولد، يجد أن هذا النوع من الاحتفال مشروعٌ ومحبوب.

فنجد الإمام الحافظ السيوطي في كتابه: **(حسن المقصد، في عمل المولد)** يذكر أنه من المباحات، وينقل في ذلك كلاماً عن الحافظ بن حجر العسقلاني أنه اجتهد في تخريج أصلٍ لمشروعية الاحتفال، فوجده في مشروعية صوم عاشوراء، حيث سأل النبي -ﷺ- اليهود عن سبب صومهم في العاشر من شهر المحرم، فقالوا: "هو اليوم الذي نجَّى الله فيه موسى -عليه السلام- وبني إسرائيل من فرعون، فنحن نصومه فرحاً بهذه الذكرى" فقال -ﷺ- "نحن أولى بموسى منكم"، وأمر أصحابه بصيام هذا اليوم، إحياءاً لذكرى نجاة سيدنا موسى.

ومن هذه الرواية التي أوردها الإمام السيوطي عن الحافظ بن حجر، نعلم أن إحياء ذِكرى أيام نصر وعز المسلمين جائزة، وينطبق ذلك أيضا على ذكرى مولد النبي الكريم -ﷺ-

وهناك فريقٌ من المنكرين ينكرون مشروعية الاحتفال، ويقولون هو بدعة ولم يفعله أهل القرون الثلاثة الأولى. وهذا الكلام به خلطٌ شديد، فعلماء الأمة درجوا على تقييد حديث: "كل محدثة بدعة" وأنه لا يُحمَل على إطلاقه، وإلا لكان اجتماع

الناس لصلاة القيام في المساجد بدعة، ولكان سيدنا عمر -ﷺ- مبتدعا لفعله ذلك وحاشاه، بل نجده يقول عن ذلك: "نعمت البدعة هي".

وقد ذهب الإمام الشافعي -رحمه الله ورضي عنه- إلى تقسيم البدعة إلى محمودة ومذمومة، كذلك ذهب الإمام العز بن عبدالسلام -رحمه الله ورضي عنه- إلى تقسيم البدعة، وجريانها على الأحكام الشرعية الخمسة.

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية -رحمه الله- أن الاجتماع على عمل المولد بشرط النية الصحيحة، قد يثاب عليه فاعله، ومن هنا نعلم أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف مشروعٌ وهو من البدع الحسنة، التي يُثابُ عليها فاعلها إن شاء الله، أما الذي نختلف فيه هو طريقة ولون الاحتفال بالمولد.

فالاحتفال الذي يكون بالاختلاط بين الرجال والنساء مذمومٌ طبعاً، والاحتفال الذي يكون بمعازف وملاهي مذمومٌ طبعاً، أما الصورة المحمودة للاحتفال بمولده -ﷺ- تكون بالاجتماع وقراءة سيرته الشريفة، ومدحه -ﷺ- والتصدق على الفقراء والمساكين، والإكثار من الصلاة والسلام عليه.

أما ما دَرَجَ عليه الناس في الديار المصرية من صناعة الحلوى وتوزيعها، فذلك يرجع إلى عادات الناس بعضهم البعض، ما لم تخالف العادة أصلاً في الشرع، فلنفرح بنبينا -ﷺ- وكل عام وأمة النبي -ﷺ- بألف خير.

* * *

الفصل الثاني

القسم الفكري

والاجتماعي

التربية الوسط

من المشاكل قديمة الأزل عند الإنسان التطرف والإنحياز، والغلو في السير في الطرف المختار في كل الشئون الدينية والدنيوية، وفي أرض الكنانة تجد هذه الآفة منتشرة في كل النواحي والشئون، وأخص هنا التربية للأبناء، ومنهج المعاملة بين الآباء وأبنائهم.

فعند البحث عن صور وألوان هذه المعاملة وهذه التربية تجدها -في الغالب وليس على العموم- تجدها إما متساهلة جداً أو متشددة ومهملة جداً، وهذا هو أصل المشكلة.

فإنك تجد في المدن أي: المحافظة نفسها مثل القاهرة والجيزة التساهل المبالغ فيه، مما ينشأ عنه ذريةً منحلة أخلاقياً فاسدة الطبع، تميل إلى الفساد والشرور ولا تسعى للعلم والإصلاح، وضعيفة الشخصية وضعيفة أمام مشكلات الحياة.

بينما تجد في القرى والأرياف إما إهمالاً وعدم التفات لمسؤلية تربية هؤلاء الأبناء، أو تشدداً وتزمتاً مما يؤدي كذلك إلى ذرية ضعيفة الشخصية متمردة، تسعى

لقضاء الوقت فيما لا ينفع، بالإضافة إلى الضرر والتشوه النفسي الناتج عن أساليب التربية الفاسدة، والتواصل الأُبوي الفاشل والمنعدم.

إن دين الإسلام دينٌ كاملٌ مُكَمَّل، أتى بالتشريعات الدينية والأخلاقية والإجتماعية المثالية لنجاح وفلاح وسلامة الإنسان في كل شؤون حياته، والله عز وجل يقول: **{وكذلك جعلناكم أمةً وسطا}[البقرة: ١٤٣].**

فالتوسط في كل شئ هو سر النجاح والتقدم، بعكس التطرف فهو سر التأخر والخراب والفساد والشرور، فالتوسط في التربية هو أن يُرَبَّى الأبناء على أُسُسٍ نفسية سليمة، وعلى وعيٍ بضرورة التقدم والنجاح في الحياة وتحمل المسؤولية، والقوة في مواجهة الصعاب والتمسك بالقيم والأخلاق.

* * *

ولكل وجهة هو موليها

جرت سنة الله في هذا الكون بالإختلاف والتنوع في كل شئ، فترى ذلك في المخلوقات وتراه في الإنسان، وترى ذلك في الشعوب والأمم والحضارات.

يقول -عز وجل-: **{إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}[الحجرات: ١٣].** ويقول -عز وجل-: **{ولا يزالون مختلفين}[هود: ١١٨].**

وقد شمل هذا التنوع والاختلاف كل شئ عند الإنسان، ومن ذلك الإختلاف في الآراء والإختلاف في التوجهات الفكرية والدينية والسياسية، والاختلاف في الطريقة الحياتية التي يرتضيها الإنسان لنفسه.

فهناك من يرغب في سلوك الحياة العلمية والثقافية والفكرية، وهناك من يرغب في الحياة العملية والحِرَفِيَّة والتُجَارية، وهناك من يرغب في الحياة الإعلامية والدينية والسياسية والتأثير في الناس، وهناك من يجمع بين البعض والكل.

وكل ذلك لا عيب فيه ولا غضاضة، إذا ما كان العامل المشترك الذي يجمع جميع هؤلاء هو قصد النفع والخير بما لا يتنافى مع القيم الإنسانية والأخلاقية، فكل سبيل من هذه السبل قد يكون سبيل خير أو سبيل شر، والمقياس في ذلك هو الإنسانية والأخلاق، والمُعَوَّلُ عليه في ذلك هو سالك الطريق نفسه، ماذا يكون السبب في سلوكه إياه وما هدفه من السير في هذا الطريق.

* * *

الكُلُّ قَصَّابْ

القصَّاب هو المرادف الفصيح لكلمة جزَّار، وهو: الذي يعمل في الجِزَارة، فيقوم بذبح الدواب وفصل اللحم عن الجِلدِ والعظام، ويجعله مهيئاً لطعام الناس ثم يقوم ببيعه.

وفي هذا الزمن صارت كلمة جَزَّار تخرج من معناها الحقيقي وتتجاوزه إلى معاني أخرى مجازية، وتطلق على أنواعٍ مختلفة من الناس يكونون أصحاب مِهَنٍ وتخصصاتٍ مختلفة، مثل الأطباء والمعلمين والتجار.

وإذا ما أُطلِقَتْ هذه الكلمة على أحدٍ ما أياً كان عمله وتخصصه، فهذا يعني أنه لا يتقي الله في عمله، ويتفنن في التكسب على حساب من لا يجد قوت يومه إلا بصعوبةٍ وَجَهْد، وهؤلاء القصَّابون كثروا جداً حتى ضاقت على الناس أنفسهم، وغلب على النفوس التَكَسُّبُ بغير حقٍ، وأكل المال الحرام بدون أي غضاضةٍ، أو الشعور بأي ذنب.

إن هؤلاء القصابون تجدهم في كل مكانٍ وفي كل جهة عمل وفي كل تخصص، وأشهرهم على الإطلاق ثلاثة.

أولهم: الأطباء -ولست أُعَمِّمْ- فهناك الكثير منهم من يرهقون كاهل المرضى بدون مصلحة طبية تقتضي ذلك، مثل طلب الأشعة والأمر لا يتطلب، أو تحاليل باهظة الثمن والأمر لا يتطلب، أو احتكار أصنافٍ معينة من الأدوية والأمر لا يتطلب، وكل ذلك بالإتفاق مع معامل الأشعة والتحاليل والصيدليات، وأخذ نسبةٍ من الربح ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وثانيهم: المعلمون الذين يُفتَرَضُ أنهم مصانع الأجيال، ومن يربون النشأ الصالح المتعلم الذي ينفع وطنه وأمته، تجدهم -ولست أُعَمِّمْ- لا يتقون الله في شرح المناهج الدراسية، فيعطون المعلومة مُجمَلَةً وناقصةً حتى يضطر الطالب للدروس الخصوصية ولا عيب فيها، ولكن العيب على من يجعلها أداةً لامتصياص الدماء وإثقال كاهل أولياء الأمور.

فترى هؤلاء القصابون أعني المعلمون، يفرضون مبالغ ضخمة ثمناً لدرسٍ واحدٍ، ويفرضون مذكراتٍ بعينها بالإتفاق مع المكاتب وأخذ النسبة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وثالثهم: التجار، وهم أكثر من لا يتقون الله في الناس -ولست أُعَمِّمْ- فإنك تجدهم يقومون بشراء السلع والبضائع بأثمانٍ معينة، ثم يبيعونها بمكاسب وأرباح قد تصل ل٨٠٪ من سعر البضاعة، بل وَيَغُشُّونَ أحياناً ويكيلون بمكاييل ناقصة، ويبيعون بضاعةً فاسدة.

وكل هؤلاء القصابون، يأكلون أموال الناس بغير حق فليتقوا الله، وليعلموا أنهم سيرجعون إليه وسيحاسبهم على ما اكتسبوا وأنفقوا.

* * *

المؤنسات الغاليات

تَقَدَّمَ بنا الزمانُ وتطورت الحياة وبَلَغَ الناس من العلوم والمعرفة مبلغاً كبيراً، وتخلينا عن كثيرٍ من العادات والتقاليد الجاهلية، التي لا تَمُسُّ للشريعة والأخلاق والإنسانية بأي صلة، ولكن يبدو أن بعض قُرَى الريف وغالب قُرَى الصعيد لم تتخلص بَعدُ من جاهليتها، برغم أنهم يدَّعُونَ الإسلام ويدَّعُونَ تَمَسُّكَهُم بمكارم الأخلاق.

وإذا أَردتُ أن أتكلم عن صور هذه الجاهلية التي تَشَرَّبَتهَا نفوسهم مثل تشرب بني إسرائيل للعجل، فلن تكفيني هذه السطور، ولكن أخص هنا أقبح لونٍ من ألوان جاهليتهم، وهو إكراه البنات على الزواج والتفنن في هذا الإكراه، وما يترتب عليه من ظلمٍ وبغيٍ وعصيانٍ لله، وإخلافٍ لوصية رسول الله ﷺ.

ففي قرى الريف والصعيد أسمع وأرى مآسي لنساءٍ قد أُكرِهنَ على الزواج بغير رِضاهِنَّ، وبإكراهٍ إما من ولي الأمر أو إرهابٍ من ابن العم ومن يرغب بالزواج، ويتفننون في هذا الإرهاب كأن يحصل ما يسمى بوقوف ابن العم، فإذا ما جاء من

الخارج من يطلب الزواج يتعرض للأذى اللساني أولاً من ابن العم، فإن لم يرجع يتعرض للأذى الجسدي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

على هؤلاء القوم أن يرجعوا عن جاهليتهم ويكفوا عن البنات الظلم والبغي، وأن يعلموا أنهم مجرد ذكور وليسوا رجالاً، لأن الرجولة أخلاقٌ وشمائل وهم ليسوا منها في شئ، وأن مرجعهم إلى الله وليكونن حسابهم عند الله شديدًا أليمًا، لظلمهم وبغيهم ومعصية شرع ربهم ومخالفة وصية نبيهم ﷺ الذي قال:

" لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات "

والذي قال:

" واستوصوا بالنساء خيرا فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتموهن بكلمة الله "

وأطالب الجهات الحكومية المختصة، أن تضع قانوناً لهؤلاء البنات المُكرَهَات اللَّاتي تتعرضهن لهذا الإرهاب الأسري، والظلم والبغي من أبناء العم والأقارب، وأن يتم فرض عقوباتٍ رادعةٍ لهؤلاء القوم البغاة، أصحاب الجاهلية الفكرية والأخلاقية والإنسانية والدينية.

❊ ❊ ❊

ما هي إلا عتبة

إن من طبيعة الإنسان أنه يأمل دوماً في أخذ المقابل لجُهده وتعبه، أو رؤية الثمرة الناتجة من عمله وسهره الليالي، وعلى قدر سعادة الإنسان بذلك، على قدر ما تكون خيبة أمله وحزنه على نفسه إذا ما ذهب هذا الجهد وهذا السهر أدراج الرياح، بدون مقابل وبدون رؤية الثمرة المرجوة من هذا الجهد وهذا العمل.

وهذا هو الذي ينطبق على طلبة الثانوية العامة، فالكثير منهم على الأقل ممن أعرفهم في محيط سكني وبشهادة معلميهم، قد بذلوا جهوداً خارقة وأُرهِقُوا إرهاقاً شديداً في الدرس والتحصيل، وسهروا الليالي يذاكرون ويجتهدون، ولكن كانت النتائج حقاً مخيبةً لآمال الجميع بلا استثناء.

إن السبب الرئيسي في هذا الإحباط وهذه الخيبة للآمال هو عدم حصول النجاح والتفوق المقابل لهذا المجهود، ولكن السبب أيضاً هو الإتجاه الفكري العام لأولياء الأمور والطلبة على حدٍ سواء، وتصورهم للنجاح والتفوق الدراسي.

فللأسف جميعنا لدينا التصور الخاطئ لهذا الأمر، فليس الوصول لكليات المجال الطبي أو الهندسي يعني بالضرورة النجاح والتفوق، إن هذا التصور يدل على ضيقٍ في الأُفق وشهوةٍ للمال، وليس للعلم الذي ينفع به الإنسان أهله ووطنه.

على أولياء الأمور وأبنائهم أن يدركوا أن الثانوية العامة ليست نهاية الطريق، وليست هي المحك والنقطة الفاصلة التي على أساسها يبني الإنسان مستقبله ويقوم بتحديد مصيره، إن الثانوية العامة ما هي إلا عَتَبَة في طريقٍ طويل، فالإدراك الفكري والوعي الإجتماعي للطالب في المرحلة الجامعية يتغير بشكلٍ كبير، ومن هنا يرى أن النجاح مسألة نسبية تعتمد على أن يجتهد الإنسان فيه بذكاءٍ وقوة وعزيمة وتخطيط.

فهونوا على أنفسكم وأعيدوا التفكير في تصوراتكم، وانظروا للمجتمع والواقع نظرةً شاملةً حياديةً مختلفة، ولينظر الطالب إلى المجالات المتاحة أمامه الآن بعد معرفة مجموعه في الثانوية، وليبحث في هذه المجالات والتخصصات ليعلم ماهيتها ومدى قابلية الإنتفاع بها على أرض الواقع، وبعد ذلك يشق طريق نجاحه في التخصص الأقرب إلى نفسه، وليخلص النية لله -عز وجل- أن ينفع بالعلم أهله ووطنه وبالله التوفق.

* * *

إنها الهمة

لا يَعتبر الإنسانُ أن لحياتهِ قيمةٌ فعلية إذا لم يقم بفعلٍ عظيمٍ، ينجح به اجتماعياً وعلمياً وعَمَلياً، في شتى المجالات والتخصصات، لا فرق في ذلك بين من اتخذ الحياة الحِرَفية أو التجارية أو العلمية أو الزراعية منهجاً له، إنما العبرة بالنجاح الإجتماعي في أيٍ من هذه المجالات.

وكم سمعنا وسنسمع عن رجال أعمال عصاميين بدأوا صغاراً وأضحوا عمالقة، وعن رجال علمٍ بدأوا مغمورين وأضحوا علماء تنتفع بهم الأمة، وعن حِرَفيين بدأوا صغاراً وأضحوا أصحاب ورش كبيرة، وليس من سر وراء كل ذلك إلا الهمة العالية.

ولماذا أقول أن سر هذا النجاح هو الهمة العالية؟

ذلك لأن هذه النجاحات المختلفة ليست أبداً مما يمكن تحقيقه بأقل جهد، بل إنها تستنزف جهداً كبيراً وزمناً طويلاً وعقباتٍ حياتيةٍ شديدة، يكفي العائق الواحد

منها ليجعل الإنسان يتخلى عن طريقه، ويمنعه من الوصول لهذا النجاح، لذلك كان السبيل الوحيد للتغلب على كل ذلك هو الهمة العالية.

تلك الهمة التي تدفع صاحبها دفعاً لتجاوز كل هذه العقبات، والتغلب على كل هذه الصعوبات، فتكون النتيجة أن صاحب هذه الهمة هو الذي يصل إلى النجاح، ويفرض وجوده في هذه الحياة.

وكم سمعتُ وقرأتُ عن علماءٍ أجلاءٍ، أبقى الله ذكرهم إلى يومنا هذا لصدق نيتهم وعلو همتهم، فقد كانوا حقاً مثالاً رائعاً لعلو الهمة وقوة العزيمة في سبيل الوصول للنجاح.

ومن هؤلاء الأكابر أحد مشايخ المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي، ورد أنه لم يطلب العلم إلا وهو في سن السبعين أو الثمانين، فظل يتعلم طوال ثلاثين سنة فلما رزقه الله التمكين في العلوم، تصدر للتعليم والتدريس فظل في ذلك ثلاثين سنةً أخرى حتى توفاه الله، ولنا في حكاية هذا العالم الجليل وقفة وعبرة، ذلك أنه لم يستحِ من طلب العلم نظراً لكِبَر سنه، والذي تضعف معه الحواس التي تعين على العملية التعليمية، بل تغلب على ذلك حتى تمكن من العلوم، وصار عالماً جليلاً ينتفع به الناس.

وإذا أردنا أن نورد العديد من الأمثلة، التي يتصف أصحابها بعلو الهمة وصدق العزيمة، حتى وصلوا إلى النجاح في شتى التخصصات، ومختلف نواحي الحياة، فلن تكفينا هذه السطور القليلة التي هي غيضُ قليلُ جداً من فيض، ولعلها تفي بالمطلوب.

ليكن همك الآن عزيزي قارئ هذه الأسطر، أن تستدرك ما فاتك من وقتك وأن لا تيأس من الوصول إلى النجاح، وأن تتشجع وتقاوم الصعوبات التي تواجهك، فإنك ستصل إن شاء الله إلى مُبتغاك، وإن لم يسعفك وقتك لتصل إلى المطلوب، فإنك لم ولن تندم على الجهد المبذول فإن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا.

* * *

أين صاحب المروءة؟

من أبرز صفات العصر الذي نحيا فيه الآن، التراجع المخيف في القيم والمبادئ والأخلاق، والتي كان من البدهي قديماً تواجدها عند أقل الناس أخلاقاً، فما بالك عزيزي القارئ بمن هو أعلى وأكرم في أخلاقه وشمائله.

ولا أعرف سبباً رئيسياً لهذا التراجع الأخلاقي بين الناس، هل هي التكنولوجيا الحديثة؟ أم تراجع دور الآباء والمعلمين ورجال الدين في التعليم والتربية والإرشاد؟، أم جناية المثقفين الذين اعتنقوا الثقافة الغربية وطبقوها على علاتها بدون النظر إلى ما يصلح منها وما لا يصلح؟، وربما تكون هذه الأمور مجتمعة هي السبب الرئيسي لهذه التراجع المؤلم، فلا نخوة ولا شهامة ولا مروءة تراها عند الصغير أو الكبير إلا قليلاً منهم.

ومن أجل ذلك دعونا نرجع قليلاً إلى الماضي المجيد، لننظر كيف كانت مروءة وأخلاق أسلافنا العرب المسلمين، لنتذكر بذلك كيف كنا وكيف صرنا ولنتعلم كيف نعود لما كنا عليه، ثم نزيد على ذلك تقدماً ومجداً ورفعة.

ودائماً وأبداً يكون المثل الأعلى للبشرية في أي طبعٍ خلقي وإنساني، هو الرسول الأعظم والحبيب المكرم المصطفى -صلى الله عليه وسلم- ذلك الإنسان الذي تحلى بمكارم الأخلاق منذ سنين حياته الأولى حتى انتقاله إلى جوار ربه -جل في علاه- فكيف كانت مروءة النبي -صلى الله عليه وسلم- ؟

لقد كانت كما وصفت السيدة خديجة أم المؤمنين فقالت:

" والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف وتحمل الكَلَّ وتُكسِبُ المعدوم وتعين على نوائب الدهر".

فهكذا كانت حياته -صلى الله عليه وسلم- قبل البعثة، كريماً عفيفاً صادقاً أميناً صاحب مروءةٍ ونخوة، يصل أرحامه ويعين كل صاحب حاجة ويتصدق على كل فقيرٍ مسكين ويكون في عون كل ضعيف، حتى بعد بعثته -صلى الله عليه وسلم- بالإسلام، كان أشد ما يكون في التخلق بهذه الأخلاق.

فقد رُوِي من جوانب مروءته -صلى الله عليه وسلم- أنه بعد بعثته أعان امرأة مسنة في حمل متاعها، وإيصالها لمسكنها وهي لا تعرفه، فلما قضى لها حاجتها قالت له لا أملك ما أجزيك به ولكن أنصحك، فإن بمكة رجلٌ يَزعُمُ أنه نبي ويفرق

بين الابن وأبيه والزوج وزوجته فلا تصحبه ولا تتبعه، فأخبرها أنه هو ذاك الرجل فتعجبت، وعلمت أن من كانت هذه أخلاقه ومروءته لا يَصدُقُ في حقه مثل تلك الإدعاءات، وآمنت به وأسلمت.

وانظر إلى أصحابه الكرام الأماجد كيف تعلموا من أخلاقه -صلى الله عليه وسلم- ونهلوا من معينها وتجملوا بمروءته، وقد حفظ التاريخ لهم سجلاتً حافلة تتحدث عن كرم أخلاقهم ورفعة شمائلهم.

فها هو سيدنا الفاروق -رضي الله عنه- في تفقده لأحوال الرعية، وجد امرأةً بأطفالٍ مساكين يبكون ولا تملك ما تطعمهم إياه فسألها عن حالها فقالت له أن حالها كما يرى والله بينها وبين عمر فما غضب منها ولا زجرها ولكن قال لها برفقٍ وما يُدرِي عمر بحالكم يرحَمُكِ الله، فقالت له يتولى أمرنا ثم ينسانا، فما لبث -رضي الله عنه- حتى أتى بدقيقٍ من بيت المال، وحمله على ظهره ليصنع لها ولأطفالها الطعام، وظل ينفخ في النار حتى يستوي، ثم أخبرها أن تذهب في اليوم التالي إلى أمير المؤمنين وستجده هناك، ليفرض لها عطاءاً من بيت المال.

وهذا عزيزي القارئ غيضٌ قليلٌ جداً من فيض، لعل وعسى أن نتذكر أخلاقنا في ظل الأحوال التي نعيش فيها الآن، فقد خاب وخسر من ظن أنه يكسب شيئاً بخسارة أخلاقه، وأحيلك عزيزي القارئ إلى قول أحمد شوقي -رحمه الله- :

فلا تَحتَقِرْ عالمًا أَنتَ فيه * ولا تجْحَدِ الآخَرَ المُنتَظَر

وخذْ لكَ زادينِ : من سيرة * ومن عملٍ صالحٍ يدخرَ

وكن في الطريقِ عفيفَ الخُطا * شريفَ السَّماعِ، كريمَ النظر

ولا تخْلُ من عملٍ فوقَه * تَعشْ غيرَ عَبْدٍ، ولا مُحتَقَر

وكن رجلًا إن أتوا بعده * يقولون : مرَّ وهذا الأثرْ

* * *

إنه معرض الكتاب ٢٠٢٢

نعيش في هذه الأيام فعالية طيبة، هي عيد المثقفين وروضة القراء وعشاق المعرفة والتصفح، فهذه الأيام يقام فيها الآن معرض القاهرة الدولي للكتاب، وهو فرصة عظيمة للقراء والكتاب على حد سواء، فالقارئ يجد بغيته من نفائس الكتب بأسعار ميسورة وفي المتناول، ويطَّلِعُ كذلك على الجديد من المؤلفات القيمة الجديرة بالإطلاع، أما الكاتب فمن أجل أن يُظهِرَ مؤلفاته للنور ولتجد فرصة المعرفة والرواج بين جمهور القراء والمثقفين.

غير أن المعرض على قدره وجلالته وأهميته، لا يكون بهذه الأوصاف وهذه المكانة إلا عند فئة قليلة من الناس، أما الباقي فلهم في الحضور هناك مآرب أخرى، فبعضهم غاية أمله الترويح عن النفس والتنزه، وبعضهم من المفتونين بالسوشيال ميديا غرضهم توثيق رحلة، وادعاء الاهتمام بالقراءة وكسب الشهرة وغيرهم كثير.

ولذلك تجد في إحصائيات المبيعات الخاصة بالمعرض، أن مبيعات الكتب قليلة جداً عند مقارنتها بغيرها من المأكولات والمشروبات ووسائل الراحة والترفيه، وأنا لا أعيب وجود ذلك ولكن أنعي حظ الكتب.

وعند ذكر معرض الكتاب أود أن أنصح معاشر الكُتَّاب، فبعضهم لعلمه بعظيم الفرصة لمعرفة المؤلفات الجديدة في المعرض، يتعجل في إنهاء مؤلفه على حساب المراجعة الدقيقة لغةً وموضوعاً، وذلك يعود بالخسار والوبال على الكتاب، فما قيمة وجوده في المعرض وبه من الأخطاء والهنات ما لا يُغفَر لمن سمى نفسه كاتباً.

فعلى المؤلف أن يتأنى وأن يعطي مؤَلَّفَهُ حقه من الرعاية والعناية، وليعلم أن المعرض كما هو فرصة عظيمة للذيوع والرواج، فإن المنافسة فيه شديدة، ولذلك أنا أميل لرأي بعض الكتاب أن الفرصة الأفضل تكون في الدعاية المناسبة في غير أيام المعارض، وعلى رفوف المكتبات المختلفة.

وأختم مقالي هذا بأن القراءة لا بديل ولا غنى عنها للإنسان، فمهما كثر قول المادحين فيها فليس هناك حد لوصفها وبيان أهميتها، ولعل أجل فوائدها هو اختصار التجارب والأعمار الكثيرة في سطور قليلة، يكتسب القارئ هذه الخبرات في ساعات وأيام قليلة، وبذلك يتطور فكره ويَنضُجُ عقلُهُ ويَحسُنُ رأيه ويَكثُرُ صوابُهُ.

فلا بد من ملازمة القراءة بصفة يومية ولو بأقل القليل، حتى ولو عدة أسطر يومياً ورحم الله الشاعر حينما قال:

"أعز مكان في الدنيا سرج سابح * وخير صديق في الزمان كتابُ"

* * *

مفتاح قيدك بيديك

خلقنا الله -عز وجل- بنظامٍ وتركيبٍ فريد فميزنا بالعقل وجعل لنا قلوباً تفيض بالمشاعر الإنسانية المختلفة، فنحن نسعد ونحزن، نتفائل ونكتئب، نصبر ونجزع، نحلم ونغضب، فهذا هو قلب الإنسان الذي قيل فيه: "ما سمي القلب قلبا إلا لتقلبه وتبدله".

وفي زمن التكنولوجيا المتطورة الذي نحيا به الآن، صارت الأجيال أشد ضعفاً وأوهى عزيمةً فلا طموح ولا جهاد، وصرنا نعاني من هشاشة نفسية شديدة تجعل الإنسان يجزع لكل شدة ولكل عنت، ويؤثر إنهاء حياته بيديه، فازدادت بذلك نسب الإنتحار بين عموم الناس، وخاصة الشباب صغار السن.

أصبحت هذه الهشاشة للأسف صفة سائدة في كثير من الأجيال الصاعدة بشكل خاص، وكثرت شكايتهم من الضغوط النفسية التي يمرون بها وتوعز إليهم كثيراً بفكرة الانتحار، وعند التأمل في الأسباب خلف هذه الضغوط نجدها كثيرة ومتشعبة، غير أنها ترجع في النهاية إلى ثلاثة أسباب مركزية تتفرع منها.

وهي: (العلاقة بالله عز وجل – العلاقة بالأبوين والأخوة – دوائر المعارف التي يحيط الأنسان بها نفسه).

أولاً: العلاقة بالله -عز وجل- فإنه مما لاشك فيه أن الإنسان بفطرته متدين، والحالة النفسية والشعورية العامة المستقرة للإنسان يساهم فيها مدى تمسكه بعلاقته الدينية.

وفي ديننا الإسلامي تتجلى الفوائد العظيمة للشعائر الدينية التي نمارسها، فهي تمثل العبادة لله -عز وجل- وفعل الصواب فبذلك يرتاح ضمير الإنسان، كما أنها تساهم في استقرار الحالة النفسية للإنسان لما في العبادة من روحانيات إيمانية، تطرد كل المشاعر السلبية من قلب وخاطر الإنسان، فتكون مثل الفلتر الذي ينقي من الشوائب، فمعلوم أن المشاعر السلبية كلما تراكمت داخل الإنسان كلما أدت إلى هلاكه.

ثانيا: العلاقة بالوالدين والأخوة، فمعلوم أن المنزل هو الوطن الخاص جداً للإنسان الذي يأوي إليه عند كل خوف أو إرهاق، ليحظى عن طريقه بالراحة والأمان.

غير أن الكثير من الناس تكون هذه الأوطان الخاصة بالنسبة لهم من أكبر أسباب الحزن والقلق، فالأمر إما أن يكون الإنسان صاحب نية طيبة غير أنه مستهتر يكرر أخطائه مرة تلو الأخرى بالرغم من تنبيهه إليها، فيستجلب بذلك غضب والديه فتتوتر العلاقة وتتحول إلى مصدر للمشاعر السلبية.

وإما أن يكون الوالدان أحدهما أو كلاهما فظاً غليظ القلب يقسو ويظلم، أو يكون مهملاً لا يراعي مطالب أهل بيته، فمفتاح حل الحالة الأولى أن يغير الإنسان من سلوكياته، فبتغيير الأسباب تتغير النتائج، والحالة الثانية فتأتي بوعظ ولي الأمر عن طريق إخوته أو جيرانه أو أصدقائه، وإن لم يرجع فالحل هو الصبر والتجنب مع حفظ الأدب.

ثالثاً: الدوائر المعرفية التي يحيط الإنسان بها نفسه في مراحل حياته المختلفة، فالإنسان خلقه الله -عز وجل- اجتماعياً يحب أن تكون بينه وبين غيره علاقات ومعارف، وهنا مكمن الخطر.

فيجب على هذه العلاقات أن تكون منتقاة بعناية، لأن الإنسان يتأثر بمن يحيط بهم نفسه، إن كانوا على خيرٍ كان معهم وإن كانوا على غير ذلك كان معهم.

فتعود أغلب المصاعب الخارجية التي يعاني منها الإنسان، لهذه الدوائر المعرفية التي ارتضاها لنفسه، فأهمية انتقاء هذه الدوائر يكمن في أنها ستؤثر على حياة الإنسان، لذلك يجب أن ينتقي دوائره المعرفية بعناية شديدة.

ولا نعني بذلك أن يقاطع الإنسان غيره ممن لا يجد في قربهم عائداً طيباً، ولكننا نعني بذلك تحجيم العلاقة بحيث لا تؤثر عليه سلباً، وهذه هي مفاتيح التغلب على هذه الضغوطات النفسية من وجهة نظري، وأتمنى لي ولكم السلامة.

* * *

ما لكم كيف تحكمون!!

تفاقمت الأوضاع في العالم ولاح في الأفق نذير الحرب التي لا تأتي إلا بشر فقامت المعارك العسكرية المتبادلة بين روسيا وأوكرانيا كل له أهدافه مبرراته ومساعيه ومراميه والخاسر الوحيد هو الشعوب التي لا تخلوا من أم ثكلى وزوجة مترملة وأبناء يُتِّمُوا جَرَّاءَ هذه المعارك.

واستنادا إلى وضع الحرب الجاري فقد تأثر الاقتصاد العالمي وبدأت بعض الدول تعاني من نقص السلع وغلاء أسعارها وفي مثل هذه الأجواء البائسة يخرج إلى الناس ذئاب البشر ومصاصي دمائهم، ولا أعني أحداً إلا التجار ابتداءاً من صغار حقرائهم إلى الكبار منهم الذين يقومون باحتكار السلع ورفع أسعارها والتربح من الأسعار الجديدة على حساب من لايجدون غير قوت يومهم ومبررهم الأوحد هو قيام الحرب وتأثيرها على الاقتصاد فما لكم كيف تحكمون.

وعند النظر إلى هذا التصرف من زوايا عديدة فلا تجد أي مسوغ لهذا التصرف الدنيئ فعند النظر إليه من زاوية دينية فنجد أن الدين قد جَرَّمَ هذا التصرف وحَرَّمَهُ

وتوَعَّد صاحب هذه التصرفات بالجزاء الأليم العادل تجاه أفعالهم أفلا يعقل هؤلاء القوم وتتغشى قلوبهم الرحمة بعباد الله المرهقين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

عنترة العبسي

ما أشد أن يعيشَ الإنسانُ بين الناسِ، وهو محرومٌ من حقوقهِ الإنسانية وحرية الحياة والاختيار، مثل عيشة العبيد التي كانت منتشرةً في ربوع الدنيا كلها، في تلك الحقبة الزمنية وذلك العصر، ولم تكن جزيرة العرب بدعاً من الأمم، فلم تأت بحياة السادة والعبيد من تلقاء نفسها، ولكنه نظامٌ قديم الأزل في مختلف الأمم والحضارات، ويسري على جزيرة العرب في ذلك ما يسري على جميع الأمم، والحضارات المختلفة.

وإن واقع هذه الحياة -وأعني حياة العبودية- يكون أشد مرارةً وفظاعةً، على نفس من يدرك ويعلم علم اليقين أصله ومنشأه، ومن يعلم أنه كريم النسب عزيز العشيرة، إلا أن قومه وعشيرته ينكرونه وأولهم من كان سبباً في مجيئه إلى هذه الحياة، وهذا هو عنترة العبسي الفارس الشاعر الكريم الشجاع، من سارت بحديثه الركبان، ونُسجت حوله العديد والعديد من الأساطير والحكايات.

وعندما نتأمل في حياة عنترة وتاريخة المليئ بالأمجاد والمفاخر، نجد أنه عانى من صراعاتٍ حياتيةٍ مريرة، وذلك لإنكار والده نسبته إليه، لأنهُ ورث لون جلد أمه وتصييره عبداً من العبيد، وكان من حقه أن يكون سيداً من السادات.

غير أنه كان صاحب همةٍ شديدةٍ، تدعوه وتحثه على أن يكون أعلى قدراً وأعز سلطاناً من بني قومه، تحدث عنها عنترة ووصفها بأنها شديدة الإرتفاع، لدرجة أن أعداءه لا يرقون إلى مستوى همته، فلذلك لا يضره لون جلده واسم أمه فقال في قصيدة له:

" ما ضرني لوني واسم زبيبةٍ * إن قصَّرت عن همتي أعدائي "

فنجد أن عنترة بعلو همته وصدق عزيمته، قد ثابر وجاهد حتى نال حريته واعترف به قومه، ثم لم يقف عند ذلك، بل واصل تحقيق البطولات والأمجاد والمفاخر، حتى صار علماً ورمزاً ومدعاةً للفخر والعزة، لبني عبسٍ جميعاً.

فصاروا هم خاصةً والعرب عامةً يتغنون بأشعار عنترة، ويتحدثون بأمجاده ويفخرون ببطولاته، والغريب أن عنترة بعد كل هذا المجد لم تدعه نفسه للتكبر والغرور، بل ظل كريماً حليما عفيفاً متحلياً بمكارم الأخلاق، ولا أستبعد أبداً أن يكون عنترة ممن تحنفوا من العرب.

وأختم مقالي هذا ببيتٍ من نفس القصيدة لعنترة، التي قالها وهو حدث السن صغير، ووصل في حياته إلى ما وعد أن يصل إليه فقال:

" فلإن بقيت لأصنعن عجائباً * ولأبكمن بلاغة الفصحاء "

وقد كان.

* * *

الإمامُ المُمتَحَن

خلق الله -تعالى- الإنسان وكرَّمه وأعلى شأنه وميزه بالعقل والتفكير، وطلب من الإنسان أن يُعمِل عقله وأن يتفكر ويتدبر، فمن ظُلمِ الإنسان لنفسه أن يهمل عقله وأن يجحد هذه النعمة العظيمة، وأن يُسلِم زمام أمره لتبعياتٍ عمياء.

إلا أن لعقل الإنسان حدودًا يقف عندها، فلا يليق أن يتسامى ليعقل الذات الإلهية، أو ليقيس بعض التشريعات الإلهية على ميزان العقل، فيقبل أو يرد على أساس ذلك، فهناك تشريعات حكمتها لا يعلمها إلا الله -عز وجل- فتُقبَل كما هي.

وفي العصر العباسي شهدت العلوم والآداب نهضةً كبرى، واطلع العرب على المؤلفات الأجنبية في العلوم والفنون، وخصوصاً الفلسفة اليونانية، فاستأسرت هذه الأخيرة لُبَّ الكثير من طلبة العلم والحكمة في ذلك العصر، وللأسف الشديد أخذوها على عِلَّاتها التي تتنافى مع أصول الشريعة الإسلامية، فضلُّوا الطريق.

وقد تكونت لدينا فرقة المعتزلة، الذين يُعمِلُونَ العقل في النصوص الصريحة للشريعة الإسلامية، فَيَقبَلُونَ ويَرُدُّونَ على أساس ذلك، وكانت هذه الفرقة وأمثالها في

كُمُونٍ وتستر حتى عهد الخليفة العباسي المأمون، والذي كان متأثراً بآرائهم مقتنعاً بمذهبهم ،وقام بحمل الناس قسراً على القبول بآراء المعتزلة، ومن لم يفعل فله عذابٌ أليم.

إلا أن قلةً من علماء المسلمين تصدوا لهذا البغي والإفتراء على دين الله، وثبتوا على مبدأهم، وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، صاحب العلم والحديث، والهمة العالية والخلق الكريم والنفس العفيفة الأبية.

فقد كان -رحمه الله- متعففاً منذ صباه، فقد مات أبوه وهو يقاتل في جيش الخليفة وتركه مع أمه، ولم يكن لهم مصدر رزق يحيون عليه، فكان يعمل أجيراً ويرابط في حلقات الفقه والحديث، وكانت أمه تشجعه على ذلك، فأملها في الحياة أن يصير ولدها عالماً جليلاً ينتفع الناس بعلمه، وقد كان.

وكان -رحمه الله- زاهداً قانعاً بالقليل نهماً في طلب العلم، فسافر ليطلب الحديث في أقطار الأرض، وكان يصبر على الغربة وضيق العيش في سبيل طلب العلم، حتى ذاع صيته وعلا ذكره بين العلماء، فشهدوا له بالعلم واستحق مكانه بينهم.

فلما كانت فتنة حمل الناس على القول بأن القرآن الكريم ليس كلام الله -عز وجل- وأنه مخلوق، كان من أوائل العلماء الذين رفضوا هذا القول وواجهه بالحجة والمنطق، وبيَّن عدم صدق هذا الرأي وأنه لا يستقيم.

وتعرض -رحمه الله- للحبس والتعذيب في عهد المأمون ثم المعتصم، وتم إخلاءُ سبيله من السجن ومنعه من التحدث إلى الناس وإقامة حلقات العلم وحبسه في داره، فلم يرجع عن رأيه بالرغم من كل ذلك، فأي إنسانٍ يتحمل كل هذا العذاب وخلاصه منه بكلمة يُقِرُّ بها.

إلا أن الإمام ابن حنبل كان صاحب همةٍ عالية وعزيمةٍ صادقة، فلم يؤثر السلامة كما فعل غيره، ولكنه ثبت على رأيه ومبدأه، لأنه يعلم أن الكلمة الواحدة من عالمٍ يُقتدى به، قد تحمل الناس على ما يرضي الله أو تحملهم على غير ذلك، فاستحق أن يكون إماماً للعلماء والمجاهدين والمسلمين.

* * *

الباحث عن الحقيقة

كنت قد ذكرت في مقالي عن الصادق الأمين -صلى الله عليه وسلم- أنه من العجيب أن تُنتِج البيئة التي كانت عليها بلاد الحجاز، بما فيها من تناقضاتٍ أخلاقية، أمثلةً كانت مثالاً للعفة والطُهر وحسن الأخلاق والشمائل، وكان أبرزهم على الإطلاق الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم-

غير أن هناك المزيد من هذه الأمثلة الطيبة، مثل زيد بن عمرو بن نفيل -رضي الله عنه- والد الصحابي الجليل سعيد بن زيد، و"الباحث عن الحقيقة".

كان هذا الرجل الكريم صاحب عقلٍ وفكرٍ وتدبرٍ ويتمتع بذوقٍ وجمال، دعته كل هذه الشمائل إلى رفض العبادة التي كانت عليها قريش والعرب، وتلمَّس بنفسه طريق العبادة القويم وبحث عن الملة القويمة، ظل هكذا حتى هداه بحثه وسعيه إلى ملة جده وجد قريش جميعا الخليل إبراهيم -عليه السلام- ولذلك قصة عجيبة، نستطيع أن نرى من خلالها مظاهر همة هذا الرجل الشغوف بالبحث عن الطريق المستقيم.

إن زيداً بن عمرو كان على علمٍ ببعض ملامح الملة الحنيفية، التي لم تَنمَحِ تماما من أذهان العرب في الحجاز، فكان ينكر شرب الخمر والذبح لغير الله على الأنصاب والأزلام، وورد عنه أنه قال في هذا الشأن مستنكرا: "الشاة خلقها الله وأنزل الماء من السماء لينبت لها الزرع والكلأ ثم تذبح لغيره"!

فلم يكن يذبح دابةً على غير اسم الله، ولم يكن يأكل مما ذبح على غير اسم الله -عز وجل-، حتى أنه ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرَّ عليه قبل البعثة في تجارةٍ له، فقدم له زيد الطعام وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يأكل مما ذبح على غير اسم الله أيضاً، فلما رأي زيدٌ تردده طمأنه وقال له أنه لايذبح كما تذبح قريش على غير اسم الله -عز وجل-.

وقد ضاق زيد بن عمرو من العيش في ظل هذه الظروف وقومه لا يستمعون إليه ويضيقون عليه، فقرر أن يخرج باحثاً عن الطريق المستقيم، وكان أول بحثه أن يقصد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فهم الذين لا يعبدون الأصنام ويعبدون رب موسى وإبراهيم -عليهما السلام- ولذلك حكاية، ذلك أنه قصد أولاً بعض أحبار اليهود فقال لهم:

حدثوني عن دينكم فإن رأيته حقاً اتبعته، فقالوا له لن تدخل في ديننا حتى تنال نصيبك من غضب الله، ثم ذهب إلى بعض الرهبان فقال لهم مثل مقالته لأحبار اليهود، فقالوا له: لن تدخل في ديننا حتى تنال نصيبك من لعنة الله، فكان رده على كِلا الرجلين "إنما أفر من ذلك" فما كان إلا أن قالا له: لانعلم لك إلا أن تتبع دين إبراهيم، فإنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً فقال: "اللهم اشهد بأني على دين إبراهيم".

وقد كان يعلم زيد بن عمرو من أهل الكتاب، أنه سيُبعَثُ نبي آخر الزمان وأنه سيكون في أرض العرب، فمكث مرابطاً منتظراً مبعث هذا النبي حتى يؤمن به ويتبعه، غير أن أجله كان أسبق إليه فقد مات فيما رُوِيَ على يد قطاع الطرق.

فدعا ربه عند موته أن يكرم الله ولده برؤية هذا النبي واتباعه، فكان ولده هو الصاحبي الجليل أحد المبشرين بالجنة، سعيد بن زيد -رضي الله عنه- ويكفي في عِظَمِ شأن زيد بن عمرو شهادة النبي -صلى الله عليه وسلم- في حقه عندما سئل عنه، فقال: "إنه يُبعَثُ يوم القيامة بيني وبين عيسى بن مريم أمةً وحده".

* * *

الإمام القاضي

من أنبل الغايات وأكرمها عند الله في الدنيا والآخرة، طلب العلم والإخلاص له والانتفاع به ونفع عباد الله به، بغض النظر عن ماهية هذا العلم، إن كان لغرض من أغراض الدنيا أو الآخرة أو كليهما معاً.

فالعلم النافع الذي يُرضي الله -عز وجل- هو الذي ينتفع به عباد الله وتصلُحُ به أحوالهم، إلا أن علوم الدين قد جمعت بين خيري الدنيا والآخرة، لذا كان لها حق التقديم والصدارة والفضل بين العلوم الإنسانية، لما ثبت في زمننا المعاصر أن التشاريع والأنظمة التي أتت بها الشريعة الإسلامية، هي الأفضل والأعدل والأسلم.

وتاريخ الإسلام مليئ بالأمجاد والمفاخر الدينية والإجتماعية والعلمية والفكرية والسياسية، وأخص من هذه الأمجاد الأمجاد العلمية، فقد انبرى من المسلمين رجالٌ ذوي همةٍ منقطة النظير، من أجل تعلم وابتكار العلوم التي ينتفع بها الناس وتكون سبباً في النهضة والتقدم.

فكان الصحابة بعد انتقال النبي -صلى الله عليه وسلم- ينتشرون في البلاد يعلمون هذا الدين ويفقهون طالبي الفقه، ثم خلفهم في ذلك التابعون الذين تلقوا العلم والفقه عنهم.

فانتشرت في كل الأمصار عُصبَةٌ من الفقهاء والمحدثين ذاع صيتهم في الآفاق، وكان من أبرزهم في العراق الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان.

والإمام أبو حنيفة من أجل العلماء قدراً ومنزلةً ومن أعلاهم مقاماً، ويُعَدُّ من جيل التابعين، وهو صاحب مدرسة أهل الرأي، وله تلامذة أجلاء وعظماء خُلِّدت أسماؤهم في التاريخ، أمثال الإمام زُفَر بن الهذيل والقاضي محمد بن الحسن الشيباني وقاضي القضاة في عهد الرشيد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، رحمهم الله جميعاً وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيراً.

وأخص بالذكر هنا من بين هؤلاء الأكابر القاضي أبو يوسف -رحمه الله- فقد كان حقاُ مثالاً طيباً في الصبر على ضيق الحياة في سبيل تعلم العلم، فيحكي هو عن نفسه أنه كان فقيراً محتاجاً، ولكن نجد أن له نفساً طموحة وهمةً صادقة في تعلم العلم، فكان ينقطع لحضور مجالس الإمام الأعظم رحمه الله.

وقد كان الإمام الأعظم -رحمه الله- صاحب نظرةٍ ثاقبة وفراسةٍ لا تخيب، فكان يقرب إليه أبا يوسف ويعده من ألمع تلامذته، حتى لاحظ أن أبا يوسف يأتي حلقة الدرس حيناً ويغيب احياناً.

فتفقده وسأل عن حاله، فأخبره أبو يوسف أن سبب انقطاعه هو طلب الرزق وطاعة والده، فقد أمره أبوه أن يتفرغ لطلب الرزق لأن العلم لن يطعمه ويسقيه، فهنا أخرج له الإمام الأعظم كيساً من النقود وقال له تمتع بها وأعلمني حين نفاذها.

ويعلق القاضي أبو يوسف بنفسه على هذا الموقف، فيقول أن الإمام الأعظم -رحمه الله- كان يأتيه بكيسٍ جديد قبل نفاد سابقه كأنه يعلم بذلك، ويقول أنه استغنى بنقود شيخه وتفرغ تفرغاً تاماً لطلب العلم.

وبعد وفاة الإمام الأعظم انتشر تلامذته لينشروا علمه وفقهه في الأمصار وعلى رأسهم أبو يوسف، وكان عالماً جليلاً مفضالاً شهد له أهل العِلم والحُكم وعامة الناس، حتى أن الخليفة هارون الرشيد -رحمه الله- قربه منه وأدناه وعينه قاضياً للقضاة، وكان يرجع إليه ويستشيره في كثيرٍ من شؤون الحكم وشؤونه الخاصة.

ومن أبرز مظاهر همته أنه كان مشغول البال بالعلم ونشره حتى في لحظات حياته الأخيرة، فقد رُويَ عنه أنه كان يناقش مع تلامذته مسألةً فقهية وهو يحتضر، فما أن انتهى منها وخرجوا من عنده حتى فاضت روحه الطيبة وسمعوا صراخ أهله ونحيبهم.

فرحم الله الإمام القاضي أبو يوسف وجزاه عن المسلمين خيراً، ورزقنا السير على خطاه وخطى الأكابر.

* * *

نظرة في ممالك النار

ممالك النار هو مسلسل يعرض الفترة الزمنية لمصر في أواخر حكم السلطان قانصوة الغوري وحكم السلطان طومان باي ثم وقوع مصر تحت سيطرة وحكم العثمانيين.

وكان الانطباع الأول الشخصي بالنسبة لي عند مشاهدة المسلسل، هو الإحساس الكبير بالفخر والعزة ومصر دولة قوية لها ثقلها وهيبتها، وترفرف رايتها فوق القاهرة وفوق الخيل التي تذهب لتؤدب المعتدين على حدود الدولة من البرتغال وغيرهم، وقد كانت دولة المماليك تاريخياً كذلك لها هذا الثقل وهذه الهيبة.

لكن لا يخلو أي عمل تاريخي كالعادة من التدخلات الدرامية والمغالطات التاريخية، فطومان باي هنا الشخصية المحورية للمسلسل، قد أظهره المسلسل بصورة الفارس النبيل الشهم الكريم العادل، وهو كان كذلك بالفعل بحسب ما ورد في المصادر التاريخية.

لكن التوصيف لعدو البطل في المسلسل والذي كان متمثلا في سليم الأول كان سخيفاً للغاية، فهو حرفياً قد جعله تجسيداً للشر المطلق بعينه، ورأيي الشخصي في سليم الأول أنه كان دموياً ولا أحبه على المستوى الشخصي، ولكن ظهوره بهذا الشكل مغالطة تاريخية صريحة وتحيز ممقوت، وسليم الأول كانت له فضائل وخدمات لاتنسى بالرغم من كثرة وشدة أخطائه.

إن استخدام الدراما التاريخية بهذه الطريقة من التحيز والتشويه للتاريخ كما تفعل تركيا وكما تفعل بعض الدول الأخرى له أغراض سياسية عميقة، فمعلوم أن الدراما لها تأثير عميق في وعي وفكر الإنسان، فإذا كان العرض لهذا الوعي مشوهاً ومتحيزاً فلا شك ستخرج لنا أجيال مغيبة ومشوهة وهذه جريمة عظمى في حق الإنسانية.

وكان الأولى أن تتجه الدراما التارخية للتناول الموضوعي للأحداث، ولا بأس من اللمسات الدرامية طالما لم تشوه تاريخاً ولم تبخس لذي حقٍ حقه، وأرجوا أن تتحسن سياسات الدراما التارخية في دولتنا وفي باقي الدول بمراعاة هذه الاعتبارات، ذلك إن أردنا شعباً واعياً معتزاً بوطنه وأرضه وتاريخه.

* * *

نظرة في الشعر والشعراء

كان الشعر من الأزل إلى الأبد من مفاخر الأمة العربية، فلا تجد شعراً له موسيقى تطرب لها الآذان وجرساً يلامس شغاف القلوب عند أي أمة مثل الذي تجده عند شعر الأمة العربية، وريادته هذه استمدها من ريادة وعظمة اللغة العربية.

وقد كان للشعر أغراض يدور بينها منها ما هو ثابت في كل زمان ومنها ما هو خاص بزمان معين دون آخر، فمن الأغراض الثابتة (المدح والذم والهجاء والفخر والغزل والرثاء)، أما الأغراض الخاصة فمنها (شعر الخمر ومنها المدائح النبوية).

والناس في معاييرهم النقدية في قبول الشعر ورده مذاهب شتى، غير أن أغلبهم يطالب بتنحية أي معيار ديني أو أخلاقي في قبول الشعر أو رده، وإنما يكون أساس القبول والرد هو جودة الشعر من عدمه.

وهناك آخرون على النقيض من هذا الرأي فالشعر له أثره البالغ على نفس الإنسان وقناعاته وأخلاقياته، والإنسان مطالب بأن يكون واعياً لما يتشكل في

وجدانه، فلا يسمح بالمعاني المسترذلة شرعاً وأخلاقاً بالتمركز في وجدانه، بغض النظر عن جودة سبك هذه المعاني من عدمه.

والذي أميل إليه بشكل شخصي هو مذهب يجمع بين الرأيين، فالشعر لا يجب أن يُبخَسَ حقه إن كان جيد السبك سليم العبارة، وفي نفس الوقت لا يجب أن يقبل ما اشتمل منه على معاني مذمومة، وعلى هذا الأساس يتم تقييم الشعر باعتبارين:

الاعتبار الأول: هو جودة السبك وسلامة العبارة.

والاعتبار الآخر: هو المضمون الذي يحمله هذا الشعر من معاني ودلالات.

فأنا أقر للشاعر بجودة شعره إن كان كذلك وأنكر عليه ما أكرهه بدافعٍ من الأخلاق، ومن أجل ذلك عاب علي كثير من زملائي عدم تفضيلي للمتنبي لكثرة المعاني التي كرهتها في شعره.

فبحكم الأخلاق لا أستطيع قبول الشعر الغزلي الذي لا يكف صاحبه عن وصف قد محبوبته وعينها وخدها ومشيتها وغير ذلك، ولا أستطيع قبول شعر الهجاء

الذي لا يكف صاحبه عن سب مهجوه والخوض في عرضه وغير ذلك من المعاني المكروهة شرعاً.

ولأجل ذلك كنا نرى كيف كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبل الشعر الذي لا يتنافى مع مكارم الأخلاق، وكذلك كان أصحابه من بعده منهم سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

الخفيُّ التقيّ

كان الجيل الأول من المسلمين من أعظم الناس قدراً عند الله -عز وجل- وعند من جاء بعدهم من المسلمين، فكانوا هم القدوة الحسنة للمسلمين في كل شئ، ومنهم أُخِذَت التشريعات التي بُنِيَ عليها الفقه الإسلامي، ذلك أنهم الجيل الذي تلقى مباشرةً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقاموا برواية الأحاديث عنه.

هذا وغيره الذي جعل كل مسلم في كل زمانٍ ومكان يكن لهم التعظيم والتوقير وهم أهل لذلك، وقد اتفق الكثير من العلماء على أن خير الصحابة أبو بكر -رضي الله عنه- ثم عمر ثم عثمان ثم علي -رضوان الله عليهم أجمعين-

ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدرٍ ثم أهل أحدٍ ثم أهل بيعة الرضوان، ثم سائر الصحابة عليهم من الله سحائب الرحمة والرضوان.

وقد كان للناس مذاهبٌ شتى في محبة وتقدير الصحابة، فالبعض منهم طبَّقَت شهرته الآفاق، والبعض كان مستور الحال، والبعض لا يعرفه إلا أهل الحديث

والفقه، وهذا بالطبع لا يدل على زيادة قدرٍ أو نقصانه، إنما هو يرجع إلى مدى تداول سيرهم عند الناس.

ففي الخلفاء الأربعة على سبيل المثال كان لسيدنا عمر النصيب الأكبر من الشهرة، ثم سيدنا علي ثم سيدنا أبي بكر ثم سيدنا عثمان.

فقد شُغِفَ الكتاب والمفكرون بالكتابة عن سيدنا عمر وسيدنا علي، ورواية الأخبار عنهما في المواقف المختلفة، وأحب أن أسلط الضوء على سيدنا ذو النورين عثمان.

فقد كان لسيدنا عثمان قبل الإسلام خُلُقٌ كريم وشمائل كريمة، أهَّلته لقَبُول دعوة صاحبه أبي بكرٍ للدخول في هذا الدين، وكان مثالاً للغني الشاكر الذي يحبه الله ورسوله.

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحبه لأخلاقه وشمائله وحيائه، وقام بتزويجه من ابنتيه، وله في الإسلام مواقف عظيمة لا تنسى، مثل القافلة التي أعان بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، ومنها شراؤه لبئر رومة وجعلها في

سبيل الله -عز وجل- ومنها تجهيزه لجيش العسرة حتى قال النبي -صلى الله عليه وسلم- "ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم".

وفي خلافة صاحبيه أبي بكر وعمر، كان هو الوزير المؤتمن والناصح المشفق، ولم يكن أحد صاحبيه يُمضِي أمراً حتى يأخذ رأيه.

يستوقفني دائماً في سيرة سيدنا عثمان هذا الموقف العجيب، الذي أخذه من الذين خرجوا إليه يريدون هلاكه، ورغم ذلك فقد قام بصرف جميع حرسه، وأمر الجميع ألا يتعرض لهم أحدٌ بسيف، مؤثراً بذلك حقن دماء المسلمين.

وقد أراد أن يردهم عنه بالحسنى واللين والحوار، إلا أنهم كانوا أغلظ قلوباً من أن بستجيبوا لذلك، فغدروا به -رضي الله عنه- بعدما منعوا عنه الماء، فمات عطشاناً صائماً ولقي ربه شهيداً كريماً، وقد كان باستطاعته أن يردهم بسيفه.

وتعليقاً على هذا الموقف من سيدنا عثمان، فهو كان لديه من الورع ما يدفعه بأن يمتنع عن ردهم بالقوة خشيةً من إسالة الدماء، لكن إدارة الدولة تستدعي مواقف حازمة، فكان يجب أن يُرَدَّ هؤلاءِ الغوغاء بالقوة والحزم، حتى لا يجترأ غيرهم

على إشاعة الفساد والفوضى متى أرادوا ذلك، فرحم الله سيدنا عثمان ورضي عنه، فقد كان تقياً خفياً.

* * *

السيد أبو الفتيان

طالما كانت المطالعة في سير الصالحين الذين مضوا من هذه الأمة، من أهم وسائل شحذ الهمم، والدلالة على عظمة هذا التاريخ الخاص بهذه الأمة الجليلة، والذي أستحضرُ سيرته في هذه السطور، هو أبو الفتيان السيد أحمد البدوي -رضي الله عنه- وجزاه عن المسلمين خيراً، والذي كان دوماً من مفاخر هذا البلد أنه أقام على أرضها ودُفِنَ فيها، فمن هو السيد أحمد البدوي؟

هو أحمد بن علي بن يحيى البدوي الحسيني الفاسي، وهو حسيني لأن نسبه ينتهي إلى الإمام الحسين -عليه السلام- وهو الفاسي لأنه ولد ونشأ نشأته الأولى في مدينة فاس بالمغرب.

وكانت الخطوط العريضة في سيرة السيد البدوي، أنه هاجر مع أسرته من فاس إلى مكة وهو في عمر السابعة، واستغرقت هذه الرحلة أربع سنوات، ثم أكمل نشأته وشبابه في أرض مكة بين طلب العلم والفروسية، فكان أشد فرسان مكة حتى لُقِّبَ بالعطَّاب لشدته.

ثم ذهب مع أخيه الأكبر حسن إلى العراق ومكثوا فيها فترة، ثم عاد إلى مكة، وفي نفس العام هاجر إلى مصر واستقر بمنطقة طنطا، وكان له أتباع كُثُر يتتلمذون على يديه، ونفع الله به خلقاً كثيراً، وكانت وفاته في طنطا، وله مسجدٌ كبيرٌ به مقامه، ويزوره الملايين من الناس في كل عام.

كان السيد البدوي ولا زال إلى يومنا هذا، محطاً للإدعاءات الصعبة والإفتراءات الشنيعة، التي تصوره بصورة المبتعد عن الشريعة الإسلامية المخالف لها، وحاشاه -رحمه الله- بل كان من أشد الناس اتباعاً للشريعة الإسلامية.

ورُوِيَ عنه أنه أتى إليه أحدهم يريد أن يتتلمذ على يديه، فرحَّب به، وبعد مضي عامين أو ثلاثة أعوام، قال الرجل للسيد البدوي: "ما لي لا أرى عليك أي شئ من الخوارق التي سمعتها عنك؟" فقال له السيد البدوي: "يا بني طوال هذه المدة التي مكثتها في صحبتي، هل رأيتني غفلت عن ذكر الله، أو تركت صلاة الجماعة، أو ارتكبت ما يخالف الشريعة؟" فقال الرجل له لا فقال له السيد البدوي: "وهذه عندنا هي الكرامة".

ويريد السيد البدوي بكلامه هذا الإشارة إلى المقولة الكريمة: "الكرامة هي الاستقامة".

ومن التهم الباطلة والعجيبة، أن السيد البدوي جاسوس شيعي أتى ليُفسِدَ على أهل مصر دينهم، وليؤسس لعودة الحكم الفاطمي من جديد على أرض مصر، وهذه تهمةٌ لا صحة لها ولا سند لها، فإن كذلك فأين هي ثمار جهده وقد مكث في مصر السنين الطوال؟

وكيف يكون ذلك وقد كان الظاهر بيبرس يستقبله ويكرمه، ويطلب منه الدعاء قبل كل معركة حربية يقوم بها، بل كيف يكون الأمر كذلك، وهو الذي جمع أتباعه ودراويشه عند قدوم الحملة الصليبية على المنصورة، وقاتلهم وقام بتحرير الكثير من أسرى المصريين؟

فإن كان جاسوساً أما كان ليستغل حالة الاضطراب هذه لصالح دعوته؟ هذا والله افتراءٌ مبين وبهتانٌ عظيم.

وخلاصة القول أن السيد أحمد البدوي كان من كبار صالحي وعلماء الأمة، ومن المجاهدين في سبيل الله بحاله وبمقاله وبفعله، ولم يكن أبداً صاحب بدعة، بل كان يُجِلُّ الشريعة الإسلامية شأنه شأن كل عالم في هذه الأمة.

وكان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي -رحمه الله- وله في الفقه الشافعي رسالةٌ مخطوطة، ومحفوظة في أرشيف المسجد الأحمدي.

وكان يَحُثُّ أتباعه على الإلتزام بشرع الله -عز وجل- ومجاهدة النفس والشيطان، وأنه بمجرد حدوث ذلك فتلك هي أعظم كرامة، يمكن أن ينالها أحدهم.

فرحم الله السيد البدوي، وجزاه عن أهل مصر خيراً، ورزقنا السير على خطاه وخطى الأكابر.

* * *

صاحب الأدب كريم العينين

من فضل الله -عز وجل- على هذه الأرض الطيبة أرض الكنانة، وهذا البلد الكريم مِصر، أنه دوماً يُخرِجُ للعالم نماذج متميزة في كافة المجالات العلمية والفكرية، وهناك الكثير من أبناء هذا البلد، كانوا أصحاب هِمَمٍ سامية، دفعتهم إلى تحدي الصعاب، والوصول إلى أعلى درجات سلم النجاح والتفوق.

ومن هؤلاء الدكتور طه حسين -رحمه الله- فقد كان هذا الرجل صاحب هِمَّةٍ سامية، في ظل ظروفٍ غايةً في الصعوبة والإرهاق، فقد فَقَدَ نظره وهو في سنٍ صغيرة فصار كريم العينين، وقد يأس والداه من أن يتمكن من الحصول على أي منصب، وذلك عن طريق نيل شهادة مرموقة، فليس لمثل من هم في حالته عادةً، إلا العمل كقارئٍ في المياتم والمناسبات، وفي أفضل حال يدرس في الأزهر الشريف، ولكنه -رحمه الله- أثبت لهم خلاف ذلك.

كان الدكتور طه حسين صاحب ذكاءٍ شديد من صغر سنه فكان لماحاً، وكان بالرغم من تثبيط جميع من حوله عالي الهمة، يسموا بعقله إلى آفاقٍ أكثر رحابة، وقد

درس في الأزهر الشريف برفقة أخيه الأكبر، غير أنه لم يوفق فكان كثير المشاكلة مع أساتذته، وفي النهاية لم يوفق في نيل درجة العالِمِية، فانتقل للدراسة في جامعة القاهرة، حيث كان من الجيل الأول الذي تخرج منها.

وكان له تعلقٌ كبير بالأدب، فحفظ أشعار الأقدمين غير أنه كان له تعلقٌ خاص بأبي العلاء المعري، حيث كان المعري كريم العينين أيضاً معروفاً بعلم اللغة والأدب.

عَرَضَت الجامعة على الدكتور طه حسين، بعدما أثبت جدارةً وكفاءةً منقطعة النظير، فكان أول من نال درجة الدكتوراة من جامعة القاهرة بالرغم من علته، أن يسافر مع المتفوقين من أمثاله ليدرسوا على نفقة الجامعة في فرنسا، ولكي ينال درجة الدكتوراة هناك، وليعود بعد ذلك معلماً في الجامعة.

فمن أَجَلِّ مظاهر همة هذا الرجل، أنه لم يكن يجيد الفرنسية فاتخذ كل السبل الممكنة ليتعلمها، وقد وُفِّقَ في تعلم المبادئ قبل سفره، ثم قام بالتقلل جداً من النفقات حتى يوفر ثمن مكان الإقامة، ويوفر ثمن المرافق الذي يسير به ويقوم بقراءة الكتب له، وظل كذلك حتى نال درجة الدكتوراة من الجامعة الفرنسية سوربون، وعاد لجامعة القاهرة أستاذاً ومعلماً.

ومن العجيب أنه كان يحتاج أحياناً لشرحٍ جغرافي أثناء المحاضرة، فكان يُحَضِّرُ لذلك ويحفظ بأنامله بمعونة زوجته البقع الجغرافية على الخريطة، ثم يقوم بعد ذلك بالشرح في الجامعة كأنه يرى بعينيه.

ترقى الدكتور طه حسين في المناصب، حتى وصل لمنصب عميد كلية الآداب ثم ناظراً للمعارف، وكان للدكتور طه حسن آراءٌ واتجاهاتٌ صادمة، ومن ذلك كتابه "في الشعر الجاهلي" حيث تطرق للشك في مصادر الشعر الجاهلي ومدى مصداقيته، وذهب إلى أنه شِعرٌ إسلامي تم انتحاله وإطلاق اسم الشعر الجاهلي عليه.

وتطرق كذلك لنصوص القرآن الكريم، مما دفع المجتمع المصري للثورة على هذا الاتجاه، وقام العديد من المفكرين وعلماء الأزهر بالرد عليه بمؤلفاتٍ تثبت بطلان ما ذهب إليه.

وبالرغم من اختلافنا مع الدكتور طه حسين في آراءه، فهو رجلٌ يستحق التقدير لعلو همته، ووصوله إلى ما وصل إليه، بالرغم من كونه كريم العينين.

* * *

مشاهِدُ الكرم

"لا يزال الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة" صدق الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-

فهذه الأمة دائماً وأبداً تُخرج لنا نماذج طيبة يُقتَدى بها في كل خصال الخير، وأذكر من هذه النماذج الوزير ابن الفرات.

فقد كان من أبرِّ الناس وأكرم الناس وأكثرهم عطاءاً وفضلاً، وقد ترجم له الإمام شمس الدين الذهبي -رحمه الله- في كتابه: "سير أعلام النبلاء"، وذكر عنه أنه قد تولى الوزارة للمكتفي وعُزِلَ وعاد لمنصبه ثلاث مرات، غير أنه في آخر أيامه ترك أكثر سلطاته بيد ولده، فظلم وتجبر حتى عُزِلَ وقُتِلَ هو وولده وألقي بهما في نهر الفرات، رحمه الله وغفر له.

من مشاهد الكرم التي برز فيها هذا الرجل، أنه قد تغير قلب الخليفة عليه وقام بعزله ثم قام بسجنه، وكان يعمل عند الوزير رجلٌ كان مديناً له بملغ خمسمائة دينار، وكان كل ما يملكه الرجل ويدخره للأيام أيضاً خمسمائة دينار، فأراد أن يرد دَيْنَهُ

للوزير ويذهب بها إليه فغاضبته زوجته في ذلك، وأخبرته أن مثل هذا المبلغ يُعَدُّ إهانةً لرجلٍ مثل ابن الفرات وقد يغضب منه.

فلم يستمع الرجل لها وذهب إلى السجن وتلطف إلى الحارس حتى سمح له برؤية ابن الفرات، فلما رآه قال له ابن الفرات: "ما الذي أتى بك؟ هل من حاجة فأقضيها لك؟" فرد عليه الرجل وقال له: "أصلح الله مولاي الوزير، إنما أنا متألم لما أنت فيه من محنة، ولك عليَّ أيادي فضل، فخذ هذا المبلغ المتواضع، لعلك أن تبر به أحد الحراس" فشكر له ابن الفرات ذلك وقال له: "ادخره لي وديعة عندك" ثم انصرف الرجل.

ومضت الأيام ورضي الخليفة عن ابن الفرات وعاد لسابق عهده في الوزارة بل أفضل حالاً من السابق، فدخل عليه ذلك الرجل الذي كان يعمل عنده فأعرض ابن الفرات بوجهه عنه، وتكرر هذا المشهد كثيراً حتى ظن الرجل أن الوزير قد كرهه، وأن زوجته كانت محقةً وندم على ما فعله.

وفي يومٍ استدعاه الوزير وأخبره أن هناك قافلةً تجارية خاصة به وصلت إلى الميناء في الموصل، فاذهب إليها وقم بمراجعة الإحصاءات وأخرج مستحقات بيت المال ثم ائتني بالباقي.

فخرج الرجل من عنده وقد حار فيما يفعل، فليس لديه الزاد ليسافر من بغداد إلى الموصل، فأخبر زوجته فهونت عليه وأعطته ما كان عندها من ذهبٍ ليقوم ببيعه وليتزود بثمنه، ففعل وسافر حتى وصل إلى الموصل وقام باستلام القافلة وراجع الإحصائيات وأخرج مستحقات بيت المال، فكان الذي تبقي تقريباً خمسٌ وعشرون ألف دينار.

ولما وصل الرجل بالمال إلى الوزير ابن الفرات أخبره الوزير أن يحتفظ بالمبلغ وديعةً عنده ففعل الرجل، ثم إن أحواله المعيشية قد سائت جداً وبدا عليه الهزال وأثر الحزن والهم.

فلما رآه الوزير هكذا قال له ماذا بك؟ وألح عليه حتى أخبره، فقال له: "لا حول ولا قوة إلا بالله، أمثلك من ينفق خمساً وعشرين ألف دينار في مدة يسيرة ثم يفتقر؟"

فتحير الرجل، فعلم الوزير أنه لم يفهم إشارته، فقال له: "يا جاهل أو تظن أني لا أجد من أودعه مالي غيرك، ألا ترى أني قد ذكرت لك صنيعك معي في السجن، وأن إعراضي عنك كان حياءاً منك؟ وكنت لا أعرف كيف أكافئك حتى أتت تلك

القافلة، فاذهب ويَسِّر على حالك وأهلك، وأنا أدبر لك إن شاء الله ما يعينك على أسباب المعيشة أنت وعَقِبِكَ".

فسبحان الله، كيف كانت نفس هذا الرجل تواقةً إلى العطاء والبذل لكل محتاج ومسكين، وكيف أنه كان لا يرى لنفسه فضلاً مع كل هذا العطاء، وكيف كان متذكراً لهذا الموقف من عامله الذي أراد أن يساعده في محتنه بكل ماله، وكيف ظل الوزير مهموماً حائراً كيف يُجازي هذا الرجل على هذا الموقف الشهم والكريم، بل أراد أن يزيده بأن يدبر له عملاً أو وقفاً يدر عليه الرزق وعلى ذريته من بعده.

وقد ذكر بعضهم أن هذا الرجل رُئِيَ في بيته الغنى وفي عقبه مثل ما كان يريد الوزير ابن الفرات، ولهذه المشاهد تتمة إن شاء الله.

* * *

مُفتِي الأنام ودُرَّةُ عُلَمَاءِ الإسلام

في ظل عصف الأزمات الجسيمة والحوادث الأليمة بالأمة، يظهر دوماً رجالٌ يسمون برجال المواقف، وهم الذين يتأثرون بمدى فداحة الأزمة التي تمر بها الأمة، ثم لا يلبث أحدهم أن يستعيد توازنه النفسي والعقلي، ثم يقف بين الناس وهم في حَيرَةٍ واضطراب، ويقود الموقف ويخبرهم أن التصرف يكون كذا، أو حل الأزمة يكون كذا.

وكان من هؤلاء الرجال فضيلة مولانا الشيخ محمد بخيت المطيعي -رحمه الله ورضي عنه- مفتي الديار المصرية الأسبق، ودُرَّةُ علماء المسلمين في زمنه، والذي كان له مواقفٌ عديدة وفقه الله -عز وجل- بها إلى خير وصلاح الأمة.

وُلِدَ الشيخ المطيعي عام ١٨٥٤مـ في بلد كانت تسمى بالقطيعة من أعمال محافظة أسيوط، غير أنه كان يهتدي بمنهج النبوة في اختيار الأسماء الحسنة، فاجتمع مع أعيان بلدته وناقشهم في الاسم، وقال نعوذ بالله من القطيعة ولكن هي المطيعة، فصار هذا اسمها وصار كل من ينسب إليها يقال له المطيعي.

وقد حفظ القرآن الكريم صغيراً وذهب للدراسة بالأزهر الشريف، وتتلمذ على يد كبار مشايخ عصره منثل الشيخ محمد عليش المالكي والشيخ عبدالرحمن الشربيني، وأظهر نبوغاً وتفوقاً كبيرين حتى نال درجة العالمية من الدرجة الأولى، وعمل بالقضاء فترة من الزمن حتى تولى منصب الإفتاء بالديار المصرية.

وكان يوازن بين عمله والتدريس لطلبة العلم، وكان حليماً معهم كأشد ما يكون، وانتقل لرحمة ربه -عز وجل عام ١٩٣٥مـ عن عمر ٨١ سنة، بعدما أدى الخدمات الجليلة لأمته ولطلبة العلم.

للشيخ المطيعي عدة مواقف إيمانية وفكرية وسياسية حفظها له التاريخ، فمن هذه المواقف الطيبة أنه كان من تلاميذه شيخنا صالح الجعفري -رحمه الله ورضي عنه- وكان الشيخ صالح لديه زميل يستمر في مضايقته وإيذائه معنوياً، والشيخ صالح يصبر ولا يرد عليه.

حتى كان وقت درس العلم الخاص بالشيخ المطيعي، فأول ما ابتدأ به درسه أنه تكلم عن فضيلة الصبر، ثم قال: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب"، مثل الشيخ صالح يؤذيه فلان فيصبر على ذلك فيوفيه الله أجره بغير حساب، فتعجب الشيخ صالح وزميله ذاك، إذا لم يكن هناك وقت حتى يمكن للشيخ صالح أن

يشكوه، وكان هذا دلالة على مدى شفافية الشيخ المطيعي وأنه مؤيد بأنوار من عند الله.

وكان للشيخ المطيعي موقف وطني عظيم لا يُنسَى له، فعندما اعتقل الاحتلال الإنجليزي سعد زغلول ومن معه وقاموا بنفيهم، قامت الحكومة الإنجليزية بتشكيل لجنة بقيادة وزير المستعمرات اللورد ميلنر، فأصدر الشيخ المطيعي فتوى بمقاطعة هذه اللجنة مما أثر على سير أحوالها.

فذهب إليه ميلنر ودار بينهم هذا الحوار حيث قال ميلنر: "إن الإنجليز ساعدوا على رقى البلاد، والحماية لا تضر المصريين فى شيء" فرد عليه الشيخ: "إن المصريين يعرفون ما يضرهم وما ينفعهم، ومطالبتهم بالاستقلال هو حقهم المشروع" فقال ميلنر: "إن الحماية البريطانية تمنع الدول الأوروبية من الاعتداء على مصر"

فرد عليه الشيخ: "إن احتلال بريطانيا لمصر هو عدوان عليها، فهل تقبل بريطانيا من فرنسا أن تعلن الحماية عليها؟!" فقال ميلنر فى غيظ: "إن إنجلترا دولة عريقة فى الاستقلال، ولا يجرؤ أحد أن يقرب منها" فرد عليه الشيخ: "مصر أعرق من إنجلترا فى هذا، وليس لإنجلترا مثل تاريخ مصر الحضارى الأصيل" فقال ميلنر: "يحسن أن نتقابل فى منتصف الطريق فتهدئوا الثورة" فرد عليه الشيخ: "وعلى إنجلترا

أن تبدأ فى النصف الأول، فتحقق رغبات المصريين فى الاستقلال، ونتعاهد معًا معاهدة الأنداد".

وكان هذا موقفا مجيداً من الشيخ المطيعي -رحمه الله- حتى إن سعد زغلول راسله من منفاه بعدما نشرت الصحف نص هذا الحوار الذي دار بينهما وقال له في خطابه:

"أكتبُ إلى فضيلتكم عن ابتهاجنا العظيم بالأجوبة التى أجبتم بها اللورد (ملنر) فى داركم العامرة، فقد أيَّدت الحق بالحجج الناهضة، ودحضت الباطل بالإنارات الواضحة، وكانت أحسن وقعًا وأبلغ أثرًا من المقاطعة، ولا غرو؛ فهى أجوبة أكبر مُفْتٍ فى الإسلام، رضى الله عنكم وأرضاكم، وسدَّد خطانا وخطاكم، آمين. سعد زغلول، باريس فى ٢٦ يناير سنة ١٩٢٠م".

* * *

نَزِيلُ الخَالِدِينْ

منطقة الدَّرَّاسَة القريبة من جامعة الأزهر الشريف ومن مشيخة الأزهر، والتي يقع بها موقف باصات النقل العام، كانت تُسَمَّى قَديماً بـ (حديقة الخالدين)، وسر هذه التسمية هو أن هذه البقعة بالذات كان يُدفَنُ بها الكثير من العلماء الأجلاء من الأزهر الشريف، والذين شهد لهم الناس بالعلم وبصلاح الحال.

ونزيل هذه الحديقة الذي أكتب عنه الآن، هو مولانا العالم الجليل الشيخ صالح الجعفري -رحمه الله- صاحب النسب الشريف والعلم النافع والشمائل الكريمة، وكان من أكابر علماء الأزهر في زمنه -رحمه الله ورضي عنه-.

وُلِدَ الشيخ صالح الجعفري بمدينة دُنقُلا بأرض السودان، وهو من الجعافرة الذين يرجع نسبهم إلى الإمام جعفر الصادق، حفيد الإمام الحسين -عليه السلام- سبط الرسول المصطفى -صلى الله عليه وسلم-

وقد حفظ القرآن الكريم في سنٍّ صغيرة كعادة الصالحين والعلماء، ثم بدأ بقراءة كتب العلم والحديث، حتى رأى في منامه أحد الصالحين يستعد للسفر

للدراسة بالأزهر الشريف، فذهب إليه الشيخ صالح وقبل يديه مودِّعاً إياه، فقال له: "إنما يطلب العلم من صدور الرجال".

ففهم الشيخ صالح أن عليه أن يذهب للدراسة بالأزهر الشريف، وأن يطلب العلم من صدور علماءه، وقد أبدى تفوقاً ونبوغاً كبيرين حتى أتى يوم تشييع جنازة الشيخ يوسف الدجوي -رحمه الله- فقام بين الناس خطيباً وأثَّر فيهم بقوة عبارته وصدق مشاعره، فأُعجِبَ به الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق -رحمه الله- شيخ الأزهر في وقته، وأمر بتعيينه خطيباً للجامع الأزهر.

تولى الشيخ صالح -رحمه الله- خطابة الجامع الأزهر، فكان يقوم بين الناس خطيباً يوم الجمعة ثم بعد الصلاة يكون هناك درس يوم الجمعة، الذي يلقي فيه على الناس درر العلم ونفائسه، وكان الأزهر عندها يضيق بالحاضرين لكثرتهم.

وكانت تربطه علاقة طيبة جداً بفضيلة الإمام الأكبر عبدالحليم محمود -رحمه الله- شيخ الأزهر، وأُثِرَ عنهما الكثير من المواقف التي تعبر عن تقدير الأكابر والعلماء لبعضهم البعض، فكانا يتنازعان في من يصلي بالناس، فكل منهما يقدم صاحبه ويقيم على ذلك الأدلة لتقوية حجته، رحمهم الله جميعا.

كان الشيخ صالح طُوال حياته يسكن بالأزهر الشريف، ولا يخرج منه إلا عند زيارة مسجد سيدنا الحسين -عليه السلام-، وعندما يضيق صدره كان يذهب ويختلي عند حديقة الخالدين، وكان يقرأ ويطالع كتب العلم هناك، حتى أنه أوصى أن يدفن هناك عند وفاته.

وقد أخذ الشيخ صالح سنده في التصوف الرشيد، عن الإمام أحمد بن إدريس -رحمه الله ورضي عنه-، ثم أسس هو الطريقة الجعفرية، وجعل أوراد المريدين عنده هي المناجاة والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

وقد كان شاعراً قوياً وله ديوانٌ ضخم، كله في مدح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وآل البيت، وترك رحمه الله مؤلفاتً علميةً جليلة، في الرد على المتشددين وغيرهم.

ومن المواقف الصالحة في حياته -رحمه الله- أنه كان لديه زميل يؤذيه بكلامه وكان لا يرد عليه، وكان يحضر وينتظم في دروس فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي -رحمه الله-، فابتدأ الشيخ درسه بقوله -تعالى- "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب"، ثم قال الشيخ المطيعي: "مِثل الشيخ صالح يؤذيه زميله فلان فيصبر على

ذلك، فيوفيه الله أجره بغير حساب" وتعجب الشيخ الصالح ومن كان يؤذيه، فلم هناك وقتٌ ولم تُتَح له الفرصة ليشكوه إلى الشيخ.

وقد رأيته -رحمه الله- في المنام في مرحلة الدراسة، وكنت في حلقة علمٍ في الأزهر الشريف، فدخل علينا من مدخل الظلة الفاطمية، ووقف الجميع احتراماً له ثم جلسنا جميعاً، وجلس هو مقابلي وأمسك بكتفي وعنفني قائلا:

"لا سبيل لك غير طلب العلم، ولا وصول لك بغيره، واحذر أن يسبقك من هم أدنى منك، لهمتهم ولفتورك"، فكانت هذه الرؤيا سبباً عظيماً في علو همتي في الطلب وأرجوا دوام هذا الحال.

وقد لقي ربه -عز وجل- في السبعينيات ودُفِنَ بحديقة الخالدين، ومسجده ومقامه هناك مشهورٌ يُزَار، فرحم الله مولانا الشيخ صالح، ورزقنا السير على خُطَاهُ وخُطَى الأكابر.

* * *

الإنسان الثاني

توجد مقولة شائعة في أوساط السوشيال ميديا ونصها كالآتي:

"بداخل كل إنسان تعرفه إنسان آخر لا تعرفه".

ومفاد هذه المقولة أن لا يثق الإنسان بأي شخصٍ يظن أنه يعرفه تمام الثقة، وربما يكون ذلك من الحكمة في شئ، وإن صدقت المقولة وكان بداخل كل إنسانٍ إنسانٌ آخر، فما هي السمات الشخصية لذلك الآخر؟ كيف هي أخلاقه؟ ومتى يظهر؟ هل يظهر بشكل لا واعي من الإنسان؟ أم أنه يكون بشكل واعي ولكن يظهر في ظل ظروف معينة؟ مثل الغضب والحزن الشديد والفرح الشديد، والمواقف الصعبة التي تمر بالإنسان، مثل الحوادث والخطر ومواقف الذل والإهانة، وضغط العمل الشديد.

في قناعتي الشخصية أن هذا الإنسان الآخر، يمكن أن نعبر عنه برجل المواقف الخاصة، ويمكننا كذلك أن ندعوه بالجوهر الحقيقي للإنسان.

فعند حلول الهدوء العام في يوم الإنسان وتكون حالته النفسية مستقرة، فهو أفضل ما يكون ذوقاً وخُلُقاً وتعاملاً، ويصدع دائماً بالمثاليات في كل شئ وفي كل شأن

من شؤون الحياة، أما ساعة الاختبار التي يتعرض فيها الإنسان لظروف لم يعتد عليها، فربما يَثبُت ويتمسك بمثالياته ومبادئه وأخلاقياته، وربما يخالفها مخالفة صريحة، وعند ذلك تسقط الأقنعة وتتجلي الحقيقة.

فربما يكون من يؤمن بالكرم في العطايا عند الاختبار يكون بخيلاً، وربما يكون الداعي بين الناس إلى ضبط النفس عند الاختبار أسرعهم تَفَلُّتاً، وربما يكون الداعي إلى المعاملات الحسنة عند الاختبار، أكثرهم سوءاً في المعاملة.

تُسمَّى هذه الحالة وهذه الظاهرة في الشريعة الإسلامية بحالة (النفاق)، والتي تعني أن يكون ظاهر الإنسان مخالفاً لباطنه، وهذه الحالة مذمومة في الشريعة الإسلامية.

فقد أمر الإسلام أتباعه بالصدق في كل شئ، قولاً وفعلاً ومعتقداً وباطناً، فكانت بذلك أعلى القيم الأخلاقية شأناً في الشريعة هي الصدق، وأسوأها حالاً هي الكذب بكل صوره قولاً وفعلاً ومعتقداً وباطناً.

ورتبت الشريعة الإسلامية على النفاق عقوباتٍ شديدة، منها أن المنافق إن لم يتب فقد حمَّلَ نفسه وِزراً عظيماً يؤاخذه الله -عز وجل- به يوم القيامة، كما أنه يسقط

من عين الله -عز وجل- ويكون مكروها في الملأ الأعلى وبين الناس، وفي مقابل ذلك فإن الصادق في كل أحواله، له مكانة عظيمة جداً عند الله -عز وجل- وعند الناس.

وخلاصة القول أنه يجب على كل إنسان، يبغى المراتب الأخلاقية العالية، أن يختبر نفسه وينظر إلى أقواله وأفعاله ومعتقداته، وأن يفتش في ذكرياته، ليعلم ما هي المواقف التي أخرجت الإنسان الثاني بداخله، حتى ينجح في جعلها إنساناً واحداً في كل حال يتعرض له، فلا يخالف قوله فعله، ولا يخالف ظاهره باطنه.

وهذه حالة عظيمة الشأن، عزيزة المنال، لا يصل إليها الكثير، ومن ينجح في الوصول إليها، فقد قام بحفر اسمه في سجل الصادقين، الْمُكَرَّمِينَ عند الله -عز وجل- وعند الناس.

* * *

إنَّ الحياةَ دقائِقٌ وثَوَانِي

لا يندم الإنسان على شئ في حياته قدر ندمه على الوقت الذي ذهب منه ولم ينتفع منه بشئ لذا كان الوقت أهم وأثمن ما يملكه الإنسان إن أحسن استغلاله فقد فاز وربح وإن أساء استغلاله فقد خسر وندم.

وكثيرا ما نسمع القول المأثور: "الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك" غير أنه سماع اللاهي الغافل الذي لا يعبأ بما يسمع، وكانت النتيجة أننا تأخرنا عن ركب الحضارة والتقدم والحياة الكريمة.

وارتباط كل أولئك بالوقت يتمثل في أن الحضارة في أي أمة لا تحصل إلا بالجد والاجتهاد ولا يتم الجد والاجتهاد للإنسان بدون أن يكون حريصا على أوقاته غير مضيع لها فيما لا ينفع وما أصدق قول الوزير الصالح يحيى بن هبيرة في شأن الوقت:

"والوقت أنفس ما عنيت بحفظه * وأراه أسهل ما عليك يضيع".

ولقد غرست الشريعة الإسلامية في نفوس أتباعها قيمة الوقت وأهمية الحفاظ عليها من ذلك قول الله -عز وجل- **{إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا}[النساء: ١٠٣].**

وفي الحديث الشريف عن عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: "سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن أي الأعمال أحب إلى الله فقال: الصلاة على أوقاتها" وارتباط ذلك بالحفاظ على الوقت يتمثل في أن الذي يحافظ على أوقات الصلاة ينغرس في نفسه احترام الوقت وهنا تتجلى حكمة وعظمة الشريعة الإسلامية.

إن تاريخنا الإسلامي مليئ بالنماذج المشرفة للعلماء والمفكرين والصالحين الذين عرف عنهم مدى حرصهم على إنفاق أوقاتهم فيما ينفع ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر "ذلك المشهد الذي أوقف فيه أحدهم الإمام الزاهد عامر بن عبد قيس وقال له: كلمني فرد عليه قائلا: أمسك الشمس واحبسها عن المسير حتى أكلمك" وفي ذلك بيان لمدى حرصه على وقته وأنه يضن به حتى على الكلمة العابرة التي يمكن أن يكلم بها أحدهم.

ومن ذلك أيضا: "قول سيدنا عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- حينما قال: ما ندمت على شئ ندمي على يوم غربت شمسه نقص فيه أجلي ولم يزد فيه عملي".

وقد نقل عن الإمام اللغوي الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي مقولة طيبة حيث قال: "أثقل الساعات علي ساعة آكل فيها" يريد بذلك أن يوضح أن الوقت عزيز لديه فهو غيور أن يضيع حتى في الطعام وهكذا كانت أحوال الأئمة السابقين في حرصهم على أوقاتهم.

وهكذا يتضح لك أيها القارئ الكريم مدى أهمية الوقت في حياة الإنسان فالوقت يساوي نجاح أو فشل ويساوي حياة أو موت ويساوي جنة أو نار فالإنسان العاقل هو الذي يغتنم وقته ويحرص على إنفاقه فيما ينفعه وإلا فهو مغبون كما بين النبي -ﷺ- في حديثه الشريف: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ".

وكثيرا ما يحدثني أحدهم عن مدى رغبته في الحفاظ على وقته، وأنه يريد أن ينجز العديد من المهام إلا أن وقته لا يساعده، فأضرب له مثلاً في تقسيم الأوقات، فيتبين له كم كان محروماً من إنجازاتٍ لو كان نظم وقته لكان فاز بها.

والتقسيم الذي ضربته له مثلا كان كالآتي: أمامك ساعتين يمكنك فيهما أن تراجع ورداً من القرآن في نصف ساعة، وفي النصف الآخر تقرأ جزءاً من كتاب

معين، وفي النصف الثالث تراجع مادتك الدراسية، وفي النصف الرابع تقوم بتمارين رياضية، فها هي أربع مهام تم إنجازها في خلال ساعتين فقط.

وخلاصة القول أيها القارئ الكريم أنه يجب عليك أن تكون نابها عاقلا حريصا على وقتك فهو عمرك ولا تعجز عن أداء المهام بدعوى عدم توفر الوقت فالإنسان لا يعيش إلا عمرا واحدا إما أن يخلد ذكره أو يطوى في غيابات التاريخ ورحم الله أحمد شوقي حينما قال:

"دقات قلب المرء قائلة له * إن الحياة دقائق وثواني

فاصنع لنفسك بعد موتك ذكرها * فالذكر للإنسان عمر ثاني".

* * *

الفصل الثالث

القسم الأدبي

طبقات فحول الشعراء

-قراءة نقدية-

أولاً: بيان استخدام ابن سلام للمنهج التاريخي في كتابه:

في المجمل لقد كان المنهج التاريخي في كتاب طبقات فحول الشعراء، ظاهراً بادياً لكل ناقد، فقد قام المؤلف محمد بن سلام بجمع الترجمات للشعراء في كل فترة زمنية جعلها طبقة من طبقاته، وهذا من المنهج التاريخي، ثم ترجم لكل شاعر وهذا من المنهج التاريخي أيضا، غير أنه لم يهتم كثيراً بمولد ووفاة كل شاعر في طبقاته.

ثم ذكر المناسبات التي كانت الدافع لإنشاء قصيدة أحدهم وأغلبها تاريخية، مثل معلقة عمرو كلثوم وقتله لملك المناذرة عمرو بن هند، وذكر بعض القصائد التي قيلت في مقتل كليب بن ربيعة، الذي كان بدوره فتيل إشعال حرب البسوس، التي دامت طويلاً، وذكر مدح زهير لهرم بن سنان لسعيه ومن معه في إيقاف حرب داحس والغبراء وفداء القتلى، وكل هذه المناسبات تتعلق بأحداث تاريخية.

ثانياً: تعليقات على استخدام ابن سلام للمنهج التاريخي في الطبقات.

طبقات الجاهليين وأصحاب المراثي والبلدان:

• يوجد في المقدمة سلاسة التنقل من فكرة إلى فكرة، وسهولة عرض الغرض من تأليف الكتاب، وبيان أصل وبداية الشعر عند العرب، والرد على بعض من ادعوا أسماء نسب قريش من ولد اسماعيل -عليه السلام- وذكروا أسماءاً من بعد مَعَدٍّ، لم ترد عن أحدٍ من العرب قط.

• وأيضاً التزام الكاتب محمد بن سلام بالتوثيق لكل المعلومات والأخبار التي أوردها في كتابه، حيث كان يعزو كل نصٍ إلى قائله، وهذا من الأمانة العلمية المحمودة.

• لم أر من الصواب كثرة الشواهد الشعرية للموضوع الواحد والفكرة الواحدة، فقد أسهب محمد بن سلام في هذه النقطة، لكن ربما تكون هذه النقطة نافعة لمن يبحث عن مثل هذه الشواهد.

• محمد بن سلام قد ترجم لكل شاعر في كل طبقة، ترجمة هي وسطٌ بين الإسهاب والخلل، وأنها ترجمة تشتمل على كل مرحلة حياتية للشاعر المذكور إن

كانت حياته معروفة ومشهورة، وتكون أيضاً مشتملةً على أطرافٍ من مناسبات بعض قصائد الشاعر المذكور.

• لم أر من الصواب اقتصار محمد بن سلام على أربعة شعراء فقط في كل طبقة، فبذلك قد حُرم بعض الشعراء الآخرين حقَّهُم في التقديم أو الذكر.

• لم أر من الصواب كذلك تقسيم محمد ابن سلام طبقاته على حسب جودة الشعر، وكثرة القصائد لكل شاعر أو قلتها، وأرى أنه كان من الأولى تقسيم الطبقات على حسب الفترات الزمنية للشعراء، ثم ترتيب شعراء كل طبقة واحدة على حسب الاعتبارات المختلفة، التي يراها ابن سلام من جودة الشعر وكثرة القصائد أو قلتها.

طبقات الإسلاميين:

• أسهب ابن سلام في ذكر أخبار بعض الشعراء في طبقات الإسلاميين، ولم يكن المقام يستدعي كل هذا الإسهاب، حيث كان المقام ذكر نُبَذ مختصرة عن أهل كل طبقة، وليس الترجمة الكاملة لهم مثل الفرزدق وجرير والأخطل.

• في ترجمة ابن سلام للشعراء في طبقاتهم أغفل بعض التفاصيل، مثل تواريخ الميلاد والوفاة، كما أن المعلومات المتعلقة بكل شاعر غير مرتبة وغير منظمة، وهي

أشبه بحديث شخصين عن الأدب، أو حديث عالم بالشعر والشعراء مع جماعة من أصحابه، ويورد لهم الكلام حسب ما يرد في خاطره.

• عند ذكر قصائد بعض الشعراء لا يذكر ابن سلام كلمة او أكثر من شطرة من البيت الشعري للشاعر المذكور، ولعل ذلك لاختلاف الروايات في هذه الكلمات المحذوفة، وهذا يعد من الأمانة العلمية، لكن كان من الأولى ذكر الروايات المختلف فيها جميعاً، عوضاً عن حذف الكلمات بالكلية، مما أدى إلى غياب معنى البيت الشعري المذكور.

* * *

قصيدة مصر تتحدث عن نفسها

(قراءة نقدية تاريخية)

أبيات القصيدة:

وقف الخلق ينظرون جميعا .١. كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبناة الأهرام في سالف الدهر .٢. كفوني الكلام عند التحدي

أنا تاج العلاء في مفرق الشرق .٣. ودراته فرائد عقدي

إن مجدي في الأوليات عريق .٤. من له مثل أولياتي ومجدي

أنا إن قدر الإله مماتي لا .٥. ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

ما رماني رام وراح سليماً .٦. من قديم عناية الله جندي

كم بغت دولة عليّ وجارت .٧. ثم زالت وتلك عقبى التحدي

إنني حرة كسرت قيودي .٨. رغم أنف العدا وقطعت قيدي

أتراني وقد طويت حياتي .٩. في مراس لم أبلغ اليوم رشدي

أمن العدل أنهم يردون الماء .١٠. صفوا وأن يكدر وردي

أمن الحق أنهم يطلقون الأس .١١. د منهم وأن تقيد أسدي

نظر الله لي فارشد أبنائي .١٢. فشدوا إلى العلا أي شد

إنما الحق قوة من قوى الأديان .١٣. أمضي من كل أبيض وهندي

قد وعدت العلا بكل أبي من.١٤. رجالي فانجزوا اليوم وعدي

وارفعوا دولتي على العلم والأخلاق .١٥. فالعلم وحده ليس يجدي

نحن نجتاز موقفاً تعثر الآراء .١٦. فيه وثمرة الرأي تردى

مناسبة القصيدة:

عند ذكر مناسبة هذه القصيدة الطيبة، التي تنبض بالعزة الوطنية، نجد أن مناسبة إنشاد حافظ إبراهيم لها، هو عودة عدلي باشا يكن من أوروبا عام ١٩٢١مـ، بعد قطعه مفاوضات استقلال مصر عن الاحتلال الإنجليزي، وألقى حافظ إبراهيم هذه القصيدة في حفل كبير لاستقبال عدلي يكن.

فالمناسبة إذاً مناسبة تاريخية لحدثٍ يتعلق به مصير الأمة والبلاد، التي عانت كثيراً تحت وطأة المحتل الأجنبي، وقاست الويلات والمظالم جرَّاء هذا الاحتلال.

التحليل:

وعند تحليل هذه القصيدة تاريخياً نتوصل إلى الآتي:

١-عزة وكبرياء في المطالبة بالحق:

ففي الأبيات من ١-٥ نجد أن مصر تصور موقفها بين أمم العالم، وتطالب بحقها الشرعي الأبدي في الحرية والاستقلال، عن طريق أبنائها الذين يمثلونها أمام هذه الأمم في وفدٍ كبير، ولكي لا يتملكهم الغرور، تذكرهم بماضيها العريق الحافل بالحضارة والأمجاد.

فهي أرض الأهرامات التي هي مليئة بالعجائب الهندسية والفلكية والمعمارية، وأنها تاج عز الشرق ولا عز للشرق بغيرها، وإن قُّدرَ لها الزوال، فلا بقاء للشرق بعدها، لذا فلتعلم هذه الأمم قدر وجلال من يقف أمامها.

٢- عاجلاً أم آجلاً سأنال حريتي:

ففي الأبيات من ٦-٩ تخبرمصر الأمم أنها وإن لم يؤيدوا موقفها، ويقدروا حق الحصول على حريتها واستقلالها، فهي عاجلاً أم آجلاً ستحصل على مرادها، وانظروا إلى تاريخ مصر، ما قصدها أحد من قبل بِذُلٍّ وخرج سليماً معافى، وكم من دولةٍ قديمة في التاريخ بغت على مصر واحتلت أراضيها، ولم تلبث أن زالت وبقيت مصر، انظروا إلى الهكسوس وإلى الفرس الإخمينيين وإلى اليونان والبطالمة والرومان، كلهم زالوا وبقيت مصر فتلك عاقبة التحدى، فهي أرضٌ حرةٌ دائماً وأبداً، تكسر قيود احتلال أي معتدي.

٣- مخاطبة الضمير الإنساني:

في البيتين ١٠-١١ مخاطبة للضمير الإنساني، ومحاججة لمن ينكرون على مصر المطالبة في حقها بالاستقلال، متعللين أن بقائها تحت السيادة البريطانية، يوفر لها العدل والتقدم، فخاطبتهم قائلةً هل من العدل أن المحتلين يتمتعون بخير البلاد، وأن يحرم منها أهلها، وهل من العدل أن يقتص المحتل لكل خطأ في حقه، ولا يُقتص منه لكل خطأ يصدر منه في حق أهلها، لا والله ليس من العدل أبداً ولن يكون، فصور مظالم الاحتلال وبغيهم على المصريين، لا تعد ولا تحصى، وانظروا إلى فاجعة دنشواي،

إلا أن الله قد هدى أهل هذه البلاد فطالبوا بحريتهم واستقلالهم، ولا مرجع عن ذلك ولا بديل.

* * *

رواية صلاح الدين الأيوبي لـ جُرجِي زيدان

(قراءة نقدية)

كان جورجي زيدان من أدباء وكتاب الشام، الذين استقروا بمصر وأنشأوا بها العديد من الصحف والمجلات، وشاركوا في النهضة الأدبية المصرية بنصيبٍ وافر، وكان له العديد من المؤلفات الثقافية والإبداعات الأدبية، وكان يتكئ على التاريخ في أعماله الأدبية الإبداعية، كرافد تاريخي ويقوم بتغليفها بغلافٍ رومانسي، وكان هذا بادياً في كل رواياته.

كما أنه كان مشغولاً بقضية من قضايا مجتمعه يُضَمِّنُهَا إحدى هذه الروايات، وهذا هو مقتضى وغاية هذا المقال.

وقد اخترت لهذا المقال (رواية صلاح الدين الأيوبي)، وقمت باستخراج الروافد المستندة على أحداث تاريخية، واستخرجت كذلك مشاهد الرومانسية التي تضمنتها الرواية، والقضية التي احتوت عليها، وأراد المؤلف أن يناقشها.

أولاً: الروافد التاريخية الرومانسية:

١ – في تمهيد الرواية أورد المؤلف تسلسلاً تاريخياً، يوضح أحوال الدول الإسلامية في المنطقة العربية، وما جاورها من الدول، وخص فيها مصر وتسلسل الحكم فيها.

وذلك أنه بعد أن بادت دولة الطولونيين والإخشيديين من بعدهم، تولى حكم مصر المعز لدين الله الفاطمي، الذي سار إلى مصر بجيشه وعلى رأسه وزيره جوهر الصقلي، وتملك زمام الأمور في مصر ثم بنى المسجد الذي عرف فيما بعد بالجامع الأزهر، ثم مدينة القاهرة ولم تعرف بهذا الاسم، إلا بعد أن سماها المعز بنفسه هذا الاسم.

ثم توالى حكم الفاطميين في مصر وكان يستعينون بالعرب والبربر، فكانوا هم وجهاء الدولة، ثم انقلبت الأمور بعد أن ازداد العنصر الأسود والعنصر التركي، فأصبحوا هم وجهاء الدولة.

ثم ضعفت سلطة الحكام الفاطميين، وكان الحكم الفعلي في أيدي الوزراء الذين كان منهم أسد الدين شِيرَكُوه، الذي بعثه نورالدين محمود زنكي على رأس

الجيش، استجابةً لطلب الوزير شاور، حتى صار شِيرَكُوه هو الوزير، ثم خلفه بعد وفاته ابن أخيه يوسف، المعروف بصلاح الدين الأيوبي.

٢ – استخدم المؤلف الأسلوب السردي، ووصف من خلاله بعض صور المجتمع في الزمن المذكور في الرواية، من تعليمٍ وأزياءٍ وعاداتٍ.

وقد قام بوصف اثنين من العامة يشاهدان موكب الخليفة، الذي خرج ليستقبل نجم الدين أيوب والد الوزير صلاح الدين الأيوبي، وصار يصف هذا الموكب وكيف أنهم يلبسون ملابس من الحرير والقصب والديباج، وأن الوزراء يركبون أحصنة محلاة بالذهب والجواهر.

أما الخليفة نفسه فكان يسير مظللاً من الشمس بمظلة من الديباج ومحلاة بالذهب والجواهر، وقربوس فرسه محلى بالذهب والجواهر كذلك، وعلى عمامته جوهرة نادرة المثال اسمها اليتيمة، وفي قوائم فرسه خلاخيل من الذهب.

٣ – من الجوانب الرومانسية في الرواية عندما صارحت سيدة الملك خادمتها بحبها لعماد الدين، الذي هو من خواص صلاح الدين، ذلك أنه حينما حصل اعتداء على قصر والدها في فترة حكمه حاول أحدهم الاعتداء عليها، وكاد أن ينجح في

اختطافها حتى أتى فارس قام بقتله وأنقذها ثم تركها وذهب، وقد أخبرها ذلك الفارس أنه من رجال صلاح الدين، وأنهم قد أتوا لنجدتهم.

ثم علمت سيدة الملك أن هذا الفارس البطل الذي أنقذها، من خواص صلاح الدين المقربين، واسمه عماد الدين، فأعجبت بشهامته وعفته، وما تزال تسمع عن أخباره حتى هامت به حباً.

٤ – من الروافد التاريخية في الرواية أيضاً المشهد الذي كان العاضد يستمع فيه إلى الوزير قَرَاقُوش، وهو يقترح عليه الاستعانة بالباطنية لقتل صلاح الدين، وذكر سيرة مؤسس هذه الفرقة الحسن الصباح، وأنه كان في عصر جد العاضد منذ مائة وخمسين سنة، وأن هذه الفرقة قد اغتالت العديد من الشخصيات السياسية الكبيرة، مثل نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملكشاه.

وذلك أن الحسن الصباح كان من المقربين جدا للوزير نظام الملك، فقد كان له معه صحبة قديمة وعَهدٌ بالصحبة والوفاء، فلما تولى نظام الملك الوزارة استقدمه وجعله من خواص مجلسه.

وكان الحسن الصباح هذا ذكياً ألمعياً، تعلم العلوم الشرعية وتعمق في علم الكلام، ثم تتلمذ خفية على يد عبدالملك بن عطَّاش صاحب الدعوة الباطنية الإسماعيلية، ثم تولى الحسن الصباح بعد ذلك زعامة الباطنية، وأنشأ من داخلها فرقة الحشاشين، وهي فرقة اغتيالات خاصة مستميتة في طاعة سيدهم الملقب بالإمام.

وذلك أن الحسن الصباح قد استخدم نبات الحشيش المخدر، ليتلاعب في عقولهم، وأوهمهم أنه أدخلهم الجنة ورأوا الحور العين، ثم عادوا إلى الحياة ليتموا مهمتهم في الحياة، وهي خدمة الحسن الصباح وبعد وفاتهم يعودون إلى هذا النعيم المقيم.

٥ – أشار المؤلف إلى حادثة تاريخية، حيث ذكر العاضد نكبة المستنصر بالله والكنوز التي سرقت من قصره وخزانة الدولة، في حديثه مع شقيقته سيدة الملك، التي عادت في صباح اليوم التالي لتطمأن على أحواله الصحية.

وذلك أنه في عهد الخليفة المستنصر بالله، ألمت بالبلاد ظروف عصيبة، فقد انخفض منسوب مياة النيل جداً، وفسد الزرع ونفقت البهائم وجاع الناس وهلكوا، حتى خزينة المستنصر نفسه لم توف قدر حاجته الشخصية فضلاً عن حاجة الناس.

ووصل الحال بالناس أن أكلوا الكلاب والقطط، وصارت تباع بأسعار خيالية، حتى أن الناس قد أكلوا بعضهم حرفياً، فكان من يموت من الناس يتغذى الآخرون على لحمه.

وظلت هذه المحنة تفتك بالبلاد سبع سنوات عجافٍ طوال، حتى استعان المستنصر بابن الجمَّال وعيَّنه وزيراً، فقمع الناس بالقوة وأصلح نظام الري والزراعة، وعدل بين الرعية حتى انتهت المحنة على يديه، وفي ظل هذه الأزمة حصلت اعتداءات وسرقات لقصر الخليفة، حتى يجد الناس ما يسدون به جوعهم.

٦ - من الجوانب الرومانسية أيضاً في الرواية، الحديث بين سيدة الملك شقيقة العاضد وخادمتها ياقوتة، حينما أخبرت ياقوتة أن شقيقها العاضد ينوي تزويجها بأبي الحسن، الذي يدعي بأنه ابن عم للعاضد، ثم طلبت من ياقوتة أن ترسل لعماد الدين تطلب منه الحضور إليها، وفي هذا دلالة كبيرة على العشق والمحبة.

فالمرأة التي يتعلق قلبها بشخصٍ آخر، وترى أنها ستُكرَهُ على الارتباط بغيره، يضطرب قلبها وتنقلب حياتها، وتظل مُعَلَّقَةً بأي أمل للنجاة، وتود لو أن الذي تحبه يأتيها ويذهب بها بعيداً، حتى لا تواجه هذه الحياة التي هي مهددة بها.

٧ – من الجوانب الرومانسية في الرواية، مشهد اضطراب مشاعر عماد الدين، عندما ذُكِرَ أمامه أن صلاح الدين قد أرسل ليطلب يد سيدة الحسن للزواج، من يد أخيها العاضد، ثم تردده عندما وصلت إليه رسالة سيدة الملك، التي تطلب منه فيها أن يحضر مسرعاً وقالت له أغثني.

وذلك أن عماد الدين قد تسلل لقلبه شيئ من الحب أو الإعجاب بسيدة الملك عندما أنقذها، وأعجب بجمالها وحسنها وتنامت هذه المشاعر بداخله، في كل لقاء رسمي بين العاضد وصلاح الدين، يرى فيه عماد الدين سيدة الحسن من طرفٍ خفي.

وما اضطراب مشاعره عند معرفة طلب صلاح الدين ليدها، إلا اضطراب مشاعر المحبين، عند الشعور بالحرمان ممن يحبون، إلا أن حبه لصلاح الدين متين، فوقع بين نارين نار من يحبها عشقاً ونار من يحبه طاعةً وولاءاً، ولذلك تردد في الاستجابة لطلب لقاء سيدة الحسن.

٨ – من الجوانب الرومانسية كذلك ذلك اللقاء بين سيدة الحسن وعماد الدين عندما لبى دعوتها، وذهب إليها عن طريق سردابٍ تحت قصر العاضد، ثم ما كان بينهما من اضطراب في المشاعر، وملامح الوجه أثناء المحادثة، ثم اعتراف سيدة الملك بحبها لعماد الدين.

وذلك أن عماد الدين رجل عفيف، تغلب عليه أخلاق وشمائل الفرسان، من إخلاصٍ وتعفف عن كل ما يشين، فكان ينظر لمن يحبها تارة، ويغلبه حياؤه تارةً أخرى، وكانت هي الأخرى تنظر تارةً، ويغلبها حياء الأنثى تارةً أخرى، حتى تملكت شجاعتها، واعترفت له بحقيقة مشاعرها نحوه، فكان ما كان من سعادة عماد الدين بحقيقة مشاعرها ،وخوفه من ضياعها، وإخلاصه لسيده صلاح الدين، وكل هذه المشاعر والنظرات الحيية بينهما، هي من علامات العشاق والمحبين.

٩ – من الروافد التاريخية، ذلك المشهد الذي يصور زوال حكم الفاطميين، وموت العاضد وتملك صلاح الدين ناصية الحكم في مصر، واستيلائه على قصر العاضد وأمواله، ثم توزيعها على الفقراء والمساكين، ووزراءه وقادة الجند والجيش، ولم يأخذ منها شيئاً لنفسه.

وذلك أن خلافة العاضد كانت بمثابة احتضار للدولة الفاطمية في مصر، فلم يكن للعاضد أي حكمٍ أو سلطة على وزراءه، وكان الوزراء يتنافسون على النفوذ فيما بينهم، ويستعينون بالأجانب من الصليبيين، مما أطمعم في السيطرة على البلاد، وظل الوضع هكذا حتى تولى الوزارة عم صلاح الدين، أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين من بعده، فأصلح أحوال البلاد سياسياً وعسكرياً، وألغى مظاهر

التشيع، وأبطل الدعاء للعاضد في المساجد، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي المستضيئ بالله، حتى مات العاضد في ظروف غامضة.

١٠ - من الجوانب الرومانسية في الرواية، حينما أحست سيدة الملك وهي تتحدث مع صلاح الدين بشأن أبي الحسن، وقرأ عليها الرسالة وعلمت أن مرسلها هو عماد الدين، صرخت باسمه مذعورة ثم أغمي عليها، وهذا قلق واضطراب المحبين على أحبابهم، ثم ما كان منها حينما اطمأنت، بعدما أخبرها صلاح الدين أنه علم بحقيقة مشاعره وحبها لعماد الدين، وأنه سيسعى في إتمام هذه العلاقة وتزويجها له، فشكرته ممتنة لأصالته وشهامته.

وذلك أن سيدة الحسن قد تم إنقاذها من محاولات الاعتداءات بعد وفاة العاضد، من قبل رجال صلاح الدين، وقام هو بنفسه بتولي رعايتها والقيام على حاجتها، وكان يريد أن يعرف منها أي معلومات عن أبي الحسن، ذلك الخائن المخادع، ثم عرفت منه أن عماد الدين مبعوث لأداء مهمة خطيرة، وهو الآن مقيد في السجن، فأغمي عليها بسبب ذلك، لشدة حبها له وخوفها عليه.

ثم بعد أن علم صلاح الدين بحقيقة مشاعر سيدة الحسن وحقيقة مشاعر عماد الدين، غلبت عليه شهامته ومروءته، وقام بطمأنة سيدة الحسن، وأنه لن يكرهها

أبداً على الزواج منه وهي غير راضية وقلبها معلق برجلٍ آخر، وأنها منذ الآن بمثابة أخته، وأنه يعتبر عماد الدين شقيقه، وعند عودته بسلام يقوم بنفسه بالإشراف على زواجهما، فكانت سعادة سيدة الحسن لا توصف، فقد اطمأنت أخيراً أنها ستكون لمن يحبها وتحبه.

١١ – من الجوانب الرومانسية كذلك المشهد الذي يصور اللقاء الغير متوقع بين عماد الدين وسيدة الملك، بعدما أفاق من سكرته وخداعه عند الحشاشين وعلم زيفهم وكذبهم، وهرب منهم ثم نجدته لسيدة الملك، التي كانت قد اختطفت من قبل أبي الحسن وإنقاذها من بين أيديهم، ثم حرارة الشوق التي أطفأها برد اللقاء، ثم تحركهما سوية إلى السلطان صلاح الدين، ثم استقرارهما ثم حفل زواجهما.

وذلك أن عماد الدين عندما تسلل إلى معقل الحشاشين وأعلن أنه يريد الانضمام لهم وخدمتهم، وهذه هي مهمته، حتى يقتل زعيمهم، قد استخدموا معه كعادتهم الشعوذات والحشيش، حتى يقوموا بخداعه وإيهامه، وزرع بذور الولاء المطلق بداخله لهم، وكادوا أن ينجحوا في ذلك حتى أفاق، وعلم خداعهم ووسائلهم، واستطاع أن يهرب منهم.

ثم عثوره على منزل لبعض أتباع الحشاشين، ووجد فيه سيدة الحسن، وكاد الرجال يقتلونها فأنقذها منهم، وعلم منها ما حصل لأخيها وما كان من شهامة صلاح الدين معها، ثم احتيال أبي الحسن حتى استطاع أن يختطفها، ثم ما كان من سعادة اللقاء بعد الفراق وزوال المتاعب والصعوبات بين المحبين العاشقين، ثم انتهاء هذه المحنة بالزواج السعيد.

ثانياً: قضية ومضمون الرواية:

بعد قراءة الرواية، يظهر لنا أنها تدور في فلك تدرج الحكم في يد صلاح الدين في مصر، وازدياد نفوذه، وفي المقابل اضمحلال نفوذ الفاطميين، حتى انقضاء عهدهم وفترتهم بموت العاضد، وتوزيع أملاكه بين وجهاء الدولة، وقادة الجيش، وعامة الناس، ثم الحيل والمكائد والمؤامرات، للإطاحة بالحكومة الجديدة في مصر، ونبذة عن طائفة الحشاشين.

وفي كل قسم من أقسام هذه الرواية نجد قضايا فرعية صغيرة، تنضوي تحت لواء قضية كبيرة، ألا وهي (التغير السياسي الكبير في الدولة، الذي يصاحبه تغير اجتماعي، وديني، واقتصادي)

ويتضح ذلك في النقاط الآتية:

١-النظام الاجتماعي:

عند النظر إلى الفترة الزمنية التي كان يعيش فيها المؤلف جرجي زيدان، نجد أنها كانت في أواخر عهد الدولة العثمانية وفي فترة حكم الخديوي توفيق لمصر، وابنه الخديوي عباس حلمي الثاني.

وكان الوضع الاجتماعي لمصر في هذه الفترة الزمنية غايةً في البؤس والتدهور، فلم تكن الحياة ميسورة في مصر إلا لأصحاب الجاه والمال والسلطان، مثل الخديوي وأسرته ووزراءه وباشوات الدولة وكبار التجار والأعيان، أما عامة الناس فلم يكونوا يعيشون إلا كفافاً، وكانت أحوالهم العلمية والصحية متدنية.

وعند إسقاط هذا الوضع على أحداث الرواية، نجده بعينه الوضع الذي جاء في مقدمة الرواية، عند وصف موكب الخليفة العاضد، الذي خرج ليستقبل نجم الدين أيوب والد وزيره صلاح الدين.

والمقولة التي قيلت على لسان الشاب الصغير، الذي كان يستمع لصاحبه الذي يشرح له نظام الموكب، وملابس الخليفة وحاشيته، فقال الشاب: "يلبسون كل هذه الجواهر وهذا الذهب، والناس لا يجد أحدهم ما يملأ به جوفه".

٢- وضع التعليم:

وقد كان الناس على قدرٍ متدنٍ جداً من التعليم والصحة، اللهم إلا الذين كانوا يبعثون بأبنائهم، للدراسة في الأزهر الشريف، وبسبب المستوي المتدني للتعليم، فقد انتشرت وراجت بينهم الخرافات والشعوذة، حتى كان الكثير يعتقد فيها ويؤمن بها.

وعند إسقاط هذا الوضع على أحداث الرواية، فنجد ذلك ظاهراً في المشاهد التي تسلل فيها عماد الدين، إلى مقر الباطنية بدعوى الانضمام لهم، وكيف أنهم احتالوا عليه بشعوذتهم وخرافاتهم، التي تخالف الشريعة الإسلامية، وكيف كاد عماد الدين أن ينخدع بهم ويؤمن بمعتقداتهم، حتى تبين له أن ذلك ما هو إلا شعوذة وخرافة.

٣- الوضع السياسي:

كان الوضع السياسي في عهد الخديوي توفيق ومن قبله الخديوي اسماعيل، وفي عهد ابنه عباس حلمي، مضطرباً شديد الاضطراب، ذلك أن الخديوي توفيق كان يستعين بالأجانب وخاصة الإنجليز، في كل صغيرة وكبيرة، مما مكنهم من التدخل السافر في الشؤون الداخلية للبلاد، وكان ذلك تمهيداً للاحتلال الإنجليزي لمصر.

وكانت هناك الكثير من حركات التمرد في الجيش، وعامة الشعب يشكون من بغي وزراء الخديوي، وظلم الإنجليز لهم، وأبرز هذه التحركات المضادة الثورة التي كانت بقيادة أحمد عرابي، التي استعان الخديوي توفيق بالانجليز لمقاومتها وردعها، مما زاد نفوذهم العسكري في مصر، وكان من مآسي ذلك قصف الإسكندرية.

وعند إسقاط ذلك كله على أحداث الرواية، نجده ظاهراً بادياً في نظام الحكم الفاطمي، فقد كان الخليفة لا حكم ولا نفوذ له، وكانت السلطة بيد الوزراء، الذين كانوا بدورهم يستعينون بالأجانب لينتصروا في المعارك التي بينهم، على السلطة والنفوذ.

وحصلت بالفعل تحركات صليبية لغزو مصر، وتصدى لها صلاح الدين، مما أطمع الأجانب في غزو مصر، حتى تولى الوزارة صلاح الدين وأحكم قبضته، وحَسَّنَ من النظم السياسية تدريجياً، حتى زال ملك الفاطميين.

٤- الوضع الإقتصادي:

كان الوضع الإقتصادي في هذه الفترة الزمنية، التي كان يعيش فيها المؤلف متدهوراً، فقد خضعت البلاد لسيطرة البلاد الأجنبية التي لها ديون ضخمة عند الحكومة، وذلك بسبب الاقتراضات التي ليس لها معنى، التي بدأها الخديوي اسماعيل ثم توفيق، فكان كل إنتاج زراعي أو صناعي، يذهب إلى الدائنين الأجانب، بحجة تسديد ديون مصر.

ووفقاً لذلك فلم تكن هناك أي نهضة صناعية، أو صحية أو تعليمية، بسبب عدم وجود الإمكانية المادية بسبب هذه الديون، فعانى الناس من فقرٍ شديد، وكانت الأموال بيد رجال الحكومة فقط، والتجار الذين يوالون الأجانب، والباشوات الذين ترجع أصولهم لأصولٍ غير مصرية.

وعند إسقاط هذا الوضع على أحداث الرواية، نجد أنه كان متمثلاً في حال الناس زمان الحكم العاضد، ومن قبله المستنصر الذي حصل في عهده مجاعة كبيرة، أكل الناس فيها القطط والكلاب وأكلوا جثث من يموت منهم.

* * *

قصيدة: الخير والشر لـ أبي العتاهية

-دراسة أسلوبية-

إن المنهج الأسلوبي في النقد الأدبي، من المناهج التي يطلق عليها النقاد مناهج ما بعد الحداثية، أو مناهج ما بعد البنيوية، وهو منهج يعده النقاد الوريث الشرعي للبلاغة العربية القديمة، المتمثلة في علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، ولذا أطلق عليه البعض اسم البلاغة الحديثة، وهو منهج يدرس النص الأدبي ويحلله على عدة مستويات وهي: (المستوى الصوتي أو الموسيقي-المستوي الصرفي-المستوى النحوي-المستوى البلاغي-المستوى الدلالي).

القصيدة وتحليلها:

قال أبو العتاهية:

الخير والشر عاداتٌ وأهواء (١) وقد يكون من الأحباب أعداء

للحكم شاهد صدق من تعمده (٢) وللحليم عن العورات إغضاء

كل له سعيه والسعي مختلف (٣) وكل نفس لها في سعيها شاء

لكل داء دواء عند عالمه (٤) من لم يكن عالما لم يدر ما الداء

الحمدلله يقضي ما يشاء ولا (٥) يقضى عليه وما للخلق ما شاءوا

لم يخلق الخلق إلا للفناء معاً (٦) تفنى وتبقى أحاديث وأسماء

يا بعد من مات ممن كان يلطفه (٧) قامت قيامته والناس أحياء

يقصي الخليل أخاه عند ميتته (٨) وكل من مات أقصته الأخلاء

لم تبك نفسك أيام الحياة لما (٩) تخشى وأنت على الأموات بكاء

أستغفر الله من ذنبي ومن سرفي (١٠) إني وإن كنت مستورا لخطاء

لم تقتحم بي دواعي النفس معصية (١١) إلا وبيني وبين النور ظلماء

كم راتع في رياض العيش تتبعه (١٢) منهن داهية ترتج دهياء

وللحوادث ساعات مصرفة (١٣) فيهن للحين إدناء وإقصاء

كل ينقل في ضيق وفي سعة (١٤) وللزمان به شد وإرخاء

المستوى النحوي:

على المستوى النحوي، فإننا نبحث في القصيدة عن التراكيب التي تضامت نحوياً، ثم التعمق فيها وبيان دلالتها على المعنى، وهذه التراكيب كالآتي:

١ – الضمائر المتنوعة:

تنوعت الضمائر في القصيدة وتعددت وانتشرت في سائر أرجائها، وقد تواجدت في الأبيات التالية:

للحكم شاهد صدق من تعمده (٢) وللحليم عن العورات إغضاء

كل له سعيه والسعي مختلف (٣) وكل نفس لها في سعيها شاء

لكل داء دواء عند عالمه (٤) من لم يكن عالما لم يدر ما الداء

يا بعد من مات ممن كان يلطفه (٧) قامت قيامته والناس أحياء

يقصي الخليل أخاه عند ميتته (٨) وكل من مات أقصته الأخلاء

لم تبك نفسك أيام الحياة لما (٩) تخشى وأنت على الأموات بكاء

أستغفر الله من ذنبي ومن سرفي (١٠) إني وإن كنت مستورا لخطاء

كم راتع في رياض العيش تتبعه (١٢) منهن داهية ترتج دهياء

فكما نلاحظ، فقد تنوعت الضمائر ما بين ضمائر غياب وضمائر تكلم وضمائر خطاب، وكان لضمير الغياب الحضور الأبرز في القصيدة، فنرى الشاعر يقول: (تعمده-سعيه-عالمه-يلطفه-أقصته-تتبعه).

بينما كان حضور ضمير المتكلم قليلاً مقارنةً بضمير الغائب، فنرى الشاعر يقول: (الياء في ذنبي-الياء في إني-تاء الفاعل في كنتُ)، ولم يكن لضمير الخطاب إلا حضور خفي، فنرى الشاعر يقول: (الكاف في لم تبكِ-أنت على الأمواتِ).

وهذا التنوع الواضح في الضمائر المذكورة في القصيدة، يدلنا على أن طغيان ضمير الغائب، على أجواء القصيدة له دلالة، وهي أن الشاعر قد أقام نفسه مقام الناصح الأمين، الذي خبر الحياة بتجاربها المتعددة، المشفق على غيره ممن ألهتهم هذه الحياة، في الصراعات الدنيوية والشهوات النفسية، وأعمتهم عن رؤية الحقيقة، فصاروا غائبين عن الحق والحقيقة، التي لا مناص منها، وهي الموت ثم الحساب.

والحضور لضمائر التكلم، الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد ضمائر الخطاب، يدلنا على أن الشاعر لديه إحساس عميق من الندم، على التفريط في الذي مضى من أيامه، في غير ما يرضي الله -عز وجل- وبما أنه قد أقام نفسه مقام الناصح الواعظ

المشفق، فهو أيضاً يخاطب نفسه، بمثل هذا النصح الذي يوجهه لغيره، ويتكلم عن تجربته الشخصية.

أما الحضور الضعيف لضمائر الخطاب في القصيدة، فلعل ذلك يدل على أن الشاعر، كان حريصاً في وعظه ونصحه، على تعميم وشمولية قوله، وأنه لا يقصد به أحداً بعينه، وذلك مراعاةً لحال من يتلقى الموعظة، فلا يشعر بالحرج، فكان ضعف الحضور لضمائر الخطاب مناسباً لهذا المقام.

٢- الجملة الفعلية:

لقد تعارف علماء اللغة على أن الجملة الفعلية، هي التي تشتمل على فعل أو تبدأ بفعل، والفعل هو الذي يدل على حدوث شئ مقترنا بزمان، فإذا كان قبل زمان التكلم كان الفعل ماضياً، وإذا كان في نفس زمان التكلم يكون الفعل مضارعاً، وإذا كان بعد زمان التكلم يكون الفعل أمراً.

وقد تنوعت الأفعال في القصيدة، ما بين أفعالٍ ماضية وأفعالٍ مضارعة، ولم يكن لفعل الأمر أي ظهورٍ في القصيدة، وهذا التنوع يدلنا دلالة واضحة على التجدد والاستمرارية، ففي الأفعال الماضية، نجد الشاعر يعبر عن الأخطاء التي يرتكبها

الإنسان، ومن ثم يأتي دور الأفعال المضارعة، التي تفيد الحدوث والتجدد، وتدلنا أن الإنسان لا يعتبر من أخطاءه، ويكررها مراتٍ أُخَر والتاريخ يكرر نفسه.

وقد انقسمت الجملة الفعلية في القصيدة إلى قسمين: (جمل منفية-وجمل مثبتة).

أ-الجملة المنفية:

الجمل المنفية، هي التي تحتوي على أسلوب من أساليب النفي، مثل حروف النفي (لا ولم ولن)، وقد أستخدم الشاعر هذا الأسلوب في قصيدته بشكلٍ واضح، وذلك يتجلى في الأبيات التالية:

لكل داء دواء عند عالمه (٤) من لم يكن عالما لم يدر ما الداء

فالشاعر في هذا البيت ينبه إلى ضرورة التعلم، والرجوع إلى أهل الذكر والعلم والتخصص في كل فن، فليس كل إنسان يستطيع مزاولة مهنة الطب، ويقوم بتشخيص ووصف العلاج لأمراض الناس.

ومرض الناس هنا هو الغفلة والإلتهاء بالدنيا، ونسيان الموت والحساب، والعرض على الله -عز وجل- فمن لم يكن لديه العلم الذي ينبهه لمثل هذه الغفلات، فلن يدري ما هو المرض الذي يوشك أن يفتك به، وبالتالي لن يستطيع علاجه.

الحمدلله يقضي ما يشاء ولا (٥) يقضى عليه وما للخلق ما شاءوا

وفي هذا البيت، يؤكد الشاعر القناعة العقدية الإيمانية، الراسخة في نفس كل مسلم، أن الله -عز وجل- هو الذي يصرف هذا الحكم ويقدر أقداراً لعباده، حسب ما اقتضت مشيئته وحكمته، وأن الخلق مهما كانت لهم مشيئة، تختلف عن مشيئة الله، فلن يحدث إلا ما قدره الله وليس في هذا شك.

لم يخلق الخلق إلا للفناء معاً (٦) تفنى وتبقى أحاديث وأسماء

وفي هذا البيت يواصل الشاعر التأكيد على الحقائق الإيمانية، التي ربما تساعد الإنسان في التنبه من غفلته الدنيوية، وسعيه خلف الشهوات الدنيئة.

وهذه الحقيقة هي أن الخلق مهما طالت أعمارهم، فنهاية الجميع الموت والفناء، فلم يبق لنا من الخلق السابقين إلا الأخبار والأسماء، وكذلك نكون نحن بالنسبة لمن يأتي بعدنا، فعلى الإنسان أن لا ينشغل إلا بما ينتفع به من علم وعمل، وإعمارٍ لهذه الأرض وطاعةٍ لله ورسوله.

لم تقتحم بي دواعي النفس معصية (١١) إلا وبيني وبين النور ظلماء

يبين لنا الشاعر في هذا البيت أنه قد أقام نفسه مقام الواعظ المشفق الأمين، وأنه يوجه وعظه ونصحه لنفسه قبل غيره، حتى لا يأخذه الكبر، وحتى يعتبر المستمع إليه، عند علمه بالخطأ الذي ارتكبه الشاعر فيتجنبه، فيقول مؤكداً هذه الحقيقة، أنه لم يعصِ الله -عز وجل- إلا وقد وجد بينه وبين نور الهداية والإيمان حُجُزاً من الظلام، وكل ذلك بسبب دواعي النفس ورغباتها الدنيوية، التي يكون فيها مخالفة لشرع الله -عز وجل- .

ب- الجملة المثبتة:

الجمل المثبتة هي الجمل الخبرية، التي يريد الشاعر فيها أن يخبر فيها المتلقي لقصيدته، ما يريده بدون توكيدٍ ولا شرطٍ ولا نداءٍ ولا نفي، وهذا الأسلوب استخدمه الشاعر في قصيدته في الأبيات التالية:

الخير والشر عاداتٌ وأهواء (١) وقد يكون من الأحباب أعداء

في هذا البيت، نرى الشاعر يريد أن يخبرنا عن حقيقة هي نتاج تجربته التي صقلتها السنين الأيام، بغرض النصح والتعليم والإرشاد لمن يتلقى منه هذا القول، فهو يقول أن صدور الخير والشر من الإنسان شئ نسبي غير ثابت، فقد يكون

صاحب الخير صاحب شر والعكس، فعلى الإنسان أن لا يركن إلى الظاهر دوماً في كل إنسان، فلا يحكم على أحد بخيرٍ ولا شرٍ، ولا يضع ثقته الكاملة في أحد، فقد يكون من الأحباب أعداءُ.

كل له سعيه والسعي مختلف (٣) وكل نفس لها في سعيها شاء

يريد الشاعر أن يقول أن كل إنسانٍ له سعيه وهدفه المختلف في هذه الحياة، وكل نفسٍ إنسانية لها في سعيها طريقة ومشيئة في تحقيق هذا السعي، وهذه هي طبيعة الأنفس البشرية.

يا بعد من مات ممن كان يلطفه (٧) قامت قيامته والناس أحياء

إنها الحقيقة المرة التي لا مناص منها، وهي أن كل إنسان سيموت، ولكن ماذا بعد موته، ما الذي يحدث له؟

يحدث له بعد ذلك أن قيامته قد قامت، فها هو يحاسب على ما قدم من حياته، وها هو يرى مقعده من الجنة أو النار، كل ذلك وغيره من الناس ما زال حياً يكابد هذه الحياة، ويتأمل آمالاً ويقدر أحوالاً.

كم راتع في رياض العيش تتبعه (١٢) منهن داهية ترتج دهياء

يخبرنا الشاعر عن حقيقة ثابتة عن طباع البشر، أنه كم من أناسٍ في هذه الحياة يرتعون في نعيم الحياة المؤقت، ولكنهم لا يدركون أن هناك دواهي تتبع كل إنسان، لا يدري عنها أي شئ، فعلى الإنسان أن لا يركن إلى أي نعيمٍ قد يراه من الدنيا.

وللحوادث ساعات مصرفة (١٣) فيهن للحين إدناء وإقصاء

ويقول الشاعر في هذا البيت، أن حوادث الدهر متقلبة غير ثابتة، فتارةً تنعم على الإنسان، وتارةً تغمره بالمصاعب، فعند مجيئ ساعات المصاعب والمصائب، نراها تقرب وتدني لنا الحين أي: وقت الموت، وعند النعيم نراها تقصي وتبعد عنا هذا الحين.

كل ينقل في ضيق وفي سعة (١٤) وللزمان به شد وإرخاء

والحقيقة الثابتة عن الحياة أنها متقلبة وغير ثابتة.

وقد أتت كل هذه الجمل الخبرية، لتثبت لنا ذلك، فكل إنسان تنقله الحياة ما بين ضيقٍ في معيشته وسعة، وللزمان مع الإنسان أحوال، فتارة يشتد عليه وتارةً يرخي.

الجمل الإنشائية:

الجمل الإنشائية مبحث من مباحب علم المعاني في البلاغة العربية، وتنقسم إلى (إنشاء طلبي-وإنشاء غير طلبي)، فالإنشاء غير الطلبي هو الذي عرفه البلاغيون، فيقولون: "هو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب".

وله صيغ كثيرة وعديدة منها: (التعجب-والمدح-والذم-والقسم-وأفعال الرجاء وصيغ العقود...إلخ).

والذي يعني به علم المعاني، هو الإنشاء الطلبي، ويعرفه البلاغيون فيقولون: "الإنشاء الطلبي هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصلٍ وقت الطلب".

وينقسم الإنشاء الطلبي إلى أقسام وهي: (الأمر-والنهي-والاستفهام-والتمني-والنداء).

وقد ورد الإنشاء بنوعيه الطلبي وغير الطلبي في القصيدة، ولم يكن له الحضور البارز، إلا أنه كان موجوداً، ولعل السبب في ذلك، أن الشاعر كان في وضع النصح والإرشاد، وفي نفس الوقت يغلب عليه التواضع، فهو يتحدث أيضاً عن أخطاءه الشخصية، فناسب هذا المقام قلة الجمل الإنشائية بنوعيها.

١ - الإنشاء الطلبي في القصيدة:

نرى أن الإنشاء الطلبي لم يكن متمثلاً إلا في بيتٍ واحد، وهو قول الشاعر:

يا بعد من مات ممن كان يلطفه (٧) قامت قيامته والناس أحياء

فالإنشاء الطلبي هنا تمثل في قوله: "يا بعد" و(يا) هي حرفٌ وأداةٌ من أدوات النداء، والنداء يعرفه البلاغيون فيقولون: "هو طلب الإقبال بحرفٍ نائبٍ مناب أدعو".

وحرف (يا) من حروف النداء التي تستخدم لنداء البعيد، إلا أنه في هذا البيت لم يستخدم في معناه الأصلي، ألا وهو النداء وإنما خرج إلى معنى مجازي آخر.

والبلاغيون يذكرون أن النداء يخرج من معناه الأصلي إلى معانٍ أخرى تستفاد من القرائن، كالزجر والتحسر والإغراء، وهذا بعينه ما وجدناه ظاهراً في هذا البيت، فالشاعر يظهر معنى التحسر والتوجع، على حال الذي يموت، فهو قد ابتعد عمن كان يعامله باللطف واللين في الحياة، مثل الأبوين والإخوة والزوجة والولد، وصار الآن مكروباً في وضع الحساب على ما قدم في حياته، فلا شفيق لديه ولا رفيق، إلا العمل الصالح.

٢- الإنشاء غير الطلبي:

وقد تمثل الإنشاء غير الطلبي في القصيدة في هذين البيتين، بغرض المدح والثناء على الله -عز وجل- وطلب المغفرة فنراه يقول:

الحمدلله يقضي ما يشاء ولا (٥) يقضى عليه وما للخلق ما شاءوا

فنرى الشاعر في خضم ذكر الحقيقة الإيمانية، التي تقول أن الله -عز وجل- هو الذي يقضي ويقدر الأمور في هذه الحياة بحكمه وعلمه، نراه يثني على الله -عز وجل- فيحمده على تقديراته، التي لا تخلوا أبداً من حكمة فيها الخير للإنسان.

واستخدام الشاعر لهذا المدح في خضم ذكر هذه الحقيقة، من شأنه أن يرفع من الحس الديني الإيماني لدى المتلقى، فيكون استقبال المتلقي أيسر وأشد في نفسه وقعاً.

أستغفر الله من ذنبي ومن سرفي (١٠) إني وإن كنت مستورا لخطاء

وهنا في هذا البيت يثني الشاعر على الله -عز وجل- ويطلب منه المغفرة، لأنه -سبحانه- يغفر الذنوب جميعاً ما عدا الشرك به، وكان ذلك في خضم اعتراف الشاعر، أن أي إنسان لا يخلوا من الخطأ والوقوع في الذنب، إلا أن هناك الكثير من الناس رغم وقوعهم في الذنوب، قد شملهم ستر الله -عز وجل- فعلى العبد أن لا يغتر بهذا الستر، وأن يلجأ دوماً إلى عفو الله وطلب المغفرة منه.

الخاتمة:

انتهت هذه الدراسة الأسلوبية التركيبية، لقصيدة (الخير والشر) للشاعر أبي العتاهية، وقد كانت هذه الدراسة مبنية على محورين (النحو – والبلاغة)، ودرسنا في النحو الضمائر ومدلولاتها، والجملة الفعلية بأقسامها، المنفية والمثبتة وأقسام كلا منهما، وفي البلاغة درسنا الجمل الإنشائية، الطلبية وغير الطلبية، ومدلولات كل منهما في القصيدة.

وبعد فهذا جهد المقل والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

* * *

النسوية والأدب العربي

مفهوم النسوية:

النسوية كلمة تعبر عن المرأة وحقوقها في منافسة الرجل، في كل المجالات الحياتية العلمية والعملية، ومن ذلك حقل الأبداع والنقد الأدبي، فهي عبارة عن حركة نسائية تهتم بدعم ودراسة كل ما هو نسائي، أي: صادر عن نساء.

ففي حقل الأدب مثلاً يتمثل في دعم كل إبداع أو إنتاج أدبي، يصدر من الأديبات النساء، والبعض تشددن في هذا الأمر، فصارت هذه الحركة عبارة عن محاولة لإثبات جدارة وكفاءة النساء في كل المجالات، وتغلبها بشكلٍ لا يحتمل الخطأ على الرجل في كل هذه المجالات.

فتحولت بذلك إلى عداء ومنافسة شرسة بين الرجل والمرأة، في كل المجالات بما في ذلك حقل الإبداع والنقد الأدبي.

والبعض الآخر توسط في هذا الأمر، فصارت حركة تنبذ كل إساءة للإبداع الأدبي للأديبات النساء، أو محاولة للانتقاص منه، وترفض كذلك هذا التشدد تجاه

الإنتاج الأدبي الرجالي، والمعيار الوحيد عندهم في ذلك كفاءة النص الأدبي، التي تحددها المعايير النقدية بغض النظر عن جنسية المبدع.

نشأة الحركة النسوية:

ترجع نشأة هذه الحركة إلى النهضة الأوروبية الحديثة، في كل المجالات الصناعية والسياسية والعلمية والأدبية والإجتماعية، فكان من أسس هذه النهضة، تغيير النظرة والمعاملة التي يعامل بها النساء، والكف عن النبذ والإقصاء للأدوار التي يحتكرها الرجل لنفسه ويحتفظ بها.

وما لبثت هذه النظرة الجديدة وهذا المفهوم الحديث، حتى انتقل إلى حقل الإبداع والنقد الأدبي، وتزامن ذلك مع الثورة النقدية الحديثة، التي حاربت المناهج النقدية السياقية، وأتت بمناهج نقدية جديدة، تهتم بتحليل ودراسة النص الأدبي، مثل البنيوية والتفكيكية والنقد الثقافي.

فظهر إلى الوجود أديبات نساء بإبداعات أدبية نسائية، تنافس نظيرها عند الرجال، وهم كثر فمنهم عندنا في المشرق العربي، عائشة التيمورية ومي زيادة ورضوى عاشور، وحنان لاشين وأحلام مستغانمي وغيرهن الكثير.

مصطلحات ومفاهيم نسوية:

للنسوية مصطلحات ومفاهيم متعددة أتناول منها الآتي:

١- الجندر:

الجندر هو مصطلح يدور حول معاني تكافؤ الفرص بين الرجل والمرأة، والمساواة الاجتماعية بينهما، وأحقية المرأة بالتواجد في المراكز التي يحتكرها الرجل لنفسه عادةً، مثل المناصب القيادية والإدارية، وتسعى أن يكون الرجل شريكاً للمرأة في مسؤلياتها، مثل الرعاية المنزلية وتربية الأبناء، حتى يتسنى لها التقدم مثله في سلم الدرجات الاجتماعية والعلمية والإدارية.

ويسعى هذا المصطلح كذلك إلى تغيير الثوابت المجتمعية، المتأصلة في أذهان الناس عن دور المرأة ودور الرجل، وإثبات أن المرأة تستطيع القيام بدور الرجل، وكذلك الرجل يستطيع القيام بدور المرأة.

٢- التحرر:

والمقصود بالتحرر عند النسويات ترك كل ما يعتقدونه قيداً اجتماعياً، يكبل حركة المرأة ويطالبها بأسلوب حياة ونمط معين، في التحركات والملابس لا يصح أبداً

أن تتجاوزه، وإن فعلت صارت مجرمة في نظر المجتمع، فيهدف التحرر إلى ترك كل ذلك وأن تختار المرأة لنفسها.

٣- تحرير المرأة:

ويقصد به تحرير المرأة من كل قيدٍ اجتماعي أو عرفي أو ديني أو أخلاقي، وأن يكون لها مطلق الحرية في فعل ما تشاء، بغض النظر عن أي ثوابت أو أخلاق أو معتقدات، فيصير من حق المرأة التمتع بالحرية الجنسية، وغير ذلك من مظاهر التحرر المزعوم، الذي أدى في النهاية إلى فساد واضطراب أخلاقي في المجتمع.

* * *

قصيدة: "أحب من الإخوان" للإمام الشافعي – شرح وتحليل–

صاحب هذه الأبيات هو الإمام الجليل محمد بن إدريس الشافعي –رحمه الله– وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً، وُلِدَ بغزة ومات أبوه وهو صغير، فأخذته أمه إلى الحجاز حيث أهله وأجداده، وهم بنو شافعٍ من نسل المطلب بن عبد مناف، والمطلب هو شقيق هاشم جد النبي –صلى الله عليه وسلم– وطَلَبَ العلم في سنٍ صغيرة وظهر نبوغه مبكراً، وتتلمذ على الإمام مالك وأصحاب الإمام أبي حنيفة، وصَنَّفَ مذهباً في الفقه في العراق ثم طوَّره في مصر، وبقي مقيماً على أرضها ومات ودُفِنَ فيها، وكان من مفاخر هذه البلد الطيبة، أن الشافعي عاش ودفن فيها.

يقول الإمام:

(أُحِبُّ مِنَ الإِخوان كُلَّ مُواتي * وَكُلَّ غَضيضِ الطَرفِ عَن عَثَراتي)

إن الذي أحبه وأحب صحبته من الناس والإخوان، كل من كان متصفاً بالحِلم واللين، لا يأخذني بكل خطأٍ أقوم، به بل يكون في كثيرٍ من الأحيان متغاضياً،

فيغض الطرف عن العثرات ولا يسارع باللوم والجفاء، وهذا الخلق من الأخلاق الربانية، فكم يذنب العبد وكم يستر الله عليه ويمهله، حتى يتوب ويرجع.

(يُوافِقُني في كُلِّ أَمرٍ أُريدُهُ * وَيَحفَظُني حَيّاً وَبَعدَ مَماتي)

ومن صفات هذا الصاحب الكريم والأخ الثمين، أنه يكون لصاحبه موافقاً لصاحبه في كل أمرٍ يريده من أمور الخير ومن المباحات، وإلا فغير ذلك يكون من قبيل صحبة السوء التي نهى عنها رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم إلى من يخالل" ومن صفات هذا الصاحب الكريم أيضاً أنه يحفظ صاحبه في حياته، فلا يخونه ولا يغتابه، وينتصر له إن أساء أحدٌ إليه، ويحفظه كذلك بعد الممات، بأن يذكره بالخير ويتفقد أهله ومن يعول، ويتصدق عليه.

(فَمَن لي بِهَذا لَيتَ أَنّي أَصَبتُهُ * لَقاسَمتُهُ ما لي مِنَ الحَسَناتِ)

والسؤال هنا أين يمكن أن يجد الإنسان صاحباً وأخاً بهذه الصفات الجليلة والشمائل الكريمة؟ فلو أن الإنسان استطاع أن يجد صاحباً كهذا، لكان من الفائزين، ولكان حقاً لهذا الصاحب أن يُجازَى بكل خير، وأن يعطيه الإنسان من نفيس ما يملك.

وأنفَسُ ما لدى الإنسان حسناته التي تنفعه يوم القيامة عند ربه، فعند مشاركة الحسنات ينتفع كلا الصاحبين عند الله -عز وجل- ويمكن أن يحصل ذلك، بأن يَحُثَّ كُلٌ منهما صاحبه على أعمال الخير والبر، والقيام به سويا.

(تَصَفَّحتُ إِخواني فَكانَ أَقَلَّهُم * عَلى كَثرَةِ الإِخوانِ أَهلُ ثِقاتي)

وفي ختام هذه القصيدة، يبين لنا الإمام الشافعي أنه قد تصفح جميع إخوانه، الذين هم من كثرة العدد بمكان، ونظر إلى أخلاقهم وشمائلهم، فلم يجد منهم على كثرتهم تلك إلا قلة، هم أهلٌ للثقة والأمانة منهم، وهكذا ينشر الإمام الشافعي الآداب الكريمة، ويعلم الناس الشمائل السليمة، بحضهم عليها في صورة الأبيات الشعرية، لأن لها وقعاً كبيراً في النفس، وأثراً كبيراً على الإنسان، فجزاه الله عنا كل خيرٍ، ورزقنا التخلق بمثل هذه الشمائل.

* * *

شرح قصيدة " مولد النور"

قصيدة "مولد النور" هي قصيدة أَلَّفتُهُا في فترة الدراسة الجامعية، فرحاً بذكرى ميلاد سيدنا الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وحباً في حضرته، وقد ضمَّنتُها في ديواني المنشور بعنوان (قوافٍ من فيض الخاطر)، وهو متاحٌ للقراءة والتحميل بشكلٍ مجاني على المواقع الإلكترونية المختلفة، لمن أراد أن يشرفني ويطالع فيه.

قلت فيها:

(يَـــا شَهـــرَ مِيـــلادِ الرَّسُولِ أَتَيتَنَا * بِـــالنُّـــورِ أَهـــلاً بِالرَّبيـــعِ النَّـــادي)

(عَطَّرتَنَـــا طَيَّبتَنَـــا بِـــالمُصطَفَـــى * شَوَّقَـــتَ قَـلبَـــاً لِلـحَبِيـــبِ يُنَـــادي)

مخاطبةٌ لشهر ربيع المبارك الأنور، الذي شرَّفَهُ الله -عز وجل- بأن يكون زمان ميلاد الرسول المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وترحيبٌ بقدومه على العالمين، مذكراً إياهم بهذا النبي العظيم الذي جعله الله رحمةً وهدايةً لهم، ومخلصاً إياهم من ضلال الشرك وفساد الأخلاق، فأهلا بالربيع النادي أي: الطيب الرائحة والذكرى،

فقد عطرت يا شهر الربيع قلوبنا وأرواحنا بعد أن أتيت بذكرى ميلاد الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وطَيَّبتَ أيامنا بأن جعلناها قراءةً في سيرته ومدحاً في حضرته، فازداد بذلك شوقنا لرؤيته -صلى الله عليه وسلم- وجعلت قلوبنا تنادي بذلك في كل وقتٍ وحين.

(هِم يَـا رَبيعَ النُّـورِ فَخراً قَـد عَلَو * تَ وَطِبـتَ ذِكـراً بِالحَبيبِ الهَادِي)

(طِـبُّ القُلُـوبِ وَسِـرُّ نُـورِ قُلُوبِنَـا * دَاعـي الخَلائِـقِ رَحمَـةً لِرَشـادِ)

فحق لك يا ربيع النور أن تهيم فخراً وعزاً بين الشهور والأيام، لأنك قد شرَّفك الله -عز وجل- بميلاد حبيبه وخير خلقه -صلى الله عليه وسلم- وطابت ذكراك ومنزلتك عند المسلمين، لذكرى حبيبنا محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي هو طِبُّ القلوب ودواؤها، ومن بشرعه نعمل فيرزقنا الله نوراً في القلوب، والذي دعانا لرشاد الحال وجاهد في ذلك رحمةً بنا، فأخرجنا الله به من ضلالات الشرك ومفاسد الأخلاق، إلى أنوار هداية التوحيد ومكارم الأخلاق.

(يَـا سَيِّـدَ السَّـاداتِ إِنِّـيَ مُغـرَمٌ * لِـي فِـي وِصالِكَ مَطمَعٌ وَأَيادي)

(فِي يَومِ مَولِدِكُم شَدَوتُ بِمَدحِكُم * فَرَحـاً وَحُبّـاً مُسلِمـاً لِقِيـادي)

(لَا أَرتَجِـي بِالمَدحِ غَيرَ رِضَاكُموا * لَا أَنثَنِـي عَـن مَدحِكُـم وَوِدَادي)

فيا سيد السادات يا رسول الله، ما أنا إلا تابعٌ لكم مغرمٌ بكم، أطمع في وصالك سيدي وقربي منك، وأنت سيد الأخلاق والكرماء، وفي ذكرى مولدكم الكريمة قد شدوت بأبيات مدحٍ فيكم، فرحاً بذكراكم وحباً في جناجبكم، معلناً بذلك تسليمي وإسلامي لشرع النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- وقد نَظَمتُ هذه الأبيات في المدح، بغرض نوال الرضا، ولا أنثني ولا أكف إن شاء الله عن مدح النبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- ومودته.

(أَنتَ الَّذِي لَولَاكَ مَا كَانَ الهُدَى * غَمَرَ القُلُوبَ فَأسلَمَت لِقِيادِ)

(فَالفَضلُ يَشمَلُ كُلَّ عَبدٍ مُسلِمٍ * فِي كُلِّ قُطرٍ فِي قُرىً وَبِلادِ)

(حَقٌّ لِمَن عَرَفَ الحَبِيبَ مُحَمَّداً * أَن لَا يَنَامَ صَبابَةً لِمُرادِ)

ولولا أنَّ الله -عز وجل- قد مَنَّ علينا بك يا سيدي يا رسول الله، ما كان هذا حال الدنيا والناس، وما كنا لنصبح مسلمين نعبد الله وحده لا شريك له، وما كنا لنقيم الصلاة ونؤتي الزكارة ونحج لبيت الله ونطعم الفقراء والمساكين.

فبك يا سيدي يا رسول الله قد غمر الهُدى والنور قلوب العباد، فأسلمت لله -عز وجل- وانقادت لشرعه، فذلك الفضل قد شمل كل عبد أنقذه الله بالإسلام، في كل قُطرٍ في أرض الله الواسعة، ولذا فقد كان حقاً لمن عرف الحبيب المصطفى -صلى

الله عليه وسلم- معرفةً حقيقةً أن يهيم بحبه، وأن يجافيه النوم بسبب تلك الصبابة، ومراده في أن يكون رفيقه -صلى الله عليه وسلم-

(إِنِّـي لَأعجَـبُ مِـن بَعيـدٍ غَافِلٍ * يَنفي المَحَبَّـةَ مِـن قَبِيـلِ عِنَـادِ)

(يَنهَـى الخَلائِقَ عَن وِدَادِ نَبِيِّهِم * وَكَأَنَّهُـم بِـودَادِهِـم مِـن عَـادِ)

(حُـبُّ النَبِـيِّ لِمَـن أَرادَ فَضِيلَـةٌ * فَهُـوَ الوَسِيلَـةُ شَافِـعٌ لِعِبَـادِ)

وإني والله لأَعجبُ أشدَّ العَجَبِ من أُناسٍ قد بلغت بهم الجفوة بنبيهم، أن أرادوا تجريده من كل لونٍ من ألوان التعظيم والإجلال، فلا يقولون سيدنا قبل اسمه الشريف ويصنفون المؤلفات في كون والديه -صلى الله عليه وسلم- في النار، وينهون الخلق عن مودته -صلى الله عليه وسلم- والفرح بذكرى مولده، وكأن من يفعل كل ذلك مذنبٌ أثيم مثل أقوام عادٍ وثمود.

فعلى هؤلاء البعيدين عن منهج نبيهم الغافلين بمقامه -صلى الله عليه وسلم- أن يعلموا أن حب النبي -صلى الله عليه وسلم- فضيلةٌ لمن أراد أن يتحَلَّى بها، فهو وسيلة العباد لنيل رحمة الله ورضوانه، وهو الذي يشفع لأمته يوم الحساب.

(هَـــذِي قَوَافِـــي رُتِّبَـــت لِمَحَبَّـــةٍ * فِـــي قَلـــبِ نَاظِمِهَـــا بِخَيـــرِ مِدَادِ)

(وَهُوَ الصَّلاةُ عَلَى الحَبِيبِ مُحَمَّدٍ * طِبُّ القُلُوبِ وَشَافِعِـي لِمَعَـادي)

(صَلَّى عَلَيهِ اللهُ مَا نَـاحَ الحَمَـا * مُ بِكُـلِّ أَرضٍ قَـد دَنَـت وَبِعادِ)

وبعد فهذه أبياتٌ وقوافي قد نُظِمَت ورُتِّبَت بدافعٍ من المحبة في قلب ناظمها الفقير، وكان المِدادُ المستخدم في نظمها خير مِدادٍ على الإطلاق فقد كان المحبة والصلاة والسلام على سيدنا الحبيب محمد -صلى الله عليه وسلم- في كل وقتٍ وحين، فهو طِبُّ القلوب والشافع للخلائق يوم الحساب.

صلى عليك الله يا سيدي يا رسول الله دوماً، ما ناح الحمام في كل أرضٍ دانية قريبة أو بعيدة.

* * *

شرح قصيدة: "ألا أيهذا السائلي"

للشاعر ابن الرومي

ابن الرومي هو شاعر من شعراء العصر العباسي الماجدين، وكان من طبقة المتنبي، اسمه هو علي بن العباس بن جُرَيج، وكان جده من أصلٍ رومي ثم أسلم، وكان من موالي بني العباس، كان ابن الرومي شاعرا مُجِيداً للشعر، واشتُهِرَ عنه غَرَضُ الهِجاءِ والرثاء، ولم ينتفع بشعره مثل باقي الشعراء، حتى قيل عنه "ما مدح رئيساً ولا مرؤوساً إلا عاد وهجاه"، وبسبب ذلك جلب لنفسه عداوة الوزراء والأمراء، وقيل أنه مات مسموماً في بغداد بفعل أحد الوزراء الذين هجاهم.

قال ابن الرومي:

(ألا أيهذا السائلي عَنْ مَعاشر * يَزيدُهُمُ لؤمُ الفَعَالِ تعاليا)

(لعمرُك ما فيهم صرفتُ عنايتي * إلى القول بل في الدهر حُكت القوافيا)

يا أيها الشخص الكريم الذي يسألني عن رأيي في بعض الناس، اسمع جوابي إليك فيهم، فأنت قد سألتني عن أناسٍ قد بلغوا من الكبر والإعجاب بالنفس، مبلغاً

عظيماً، وصاروا يتخلقون بأخلاقٍ ذميمةٍ تدفعهم إلى الأفعال التي لا يقوم بها إلا اللِّئَامُ من الناس، ولا يتحرجون من ذلك بل يزيدون تعالياً وترفعاً عن الناس.

وإني أقسم بعمرك أيها السائل، أن مثل هؤلاء القوم لا أجود عليهم بقليلٍ من العناية والترتيب، لأنظم فيهم القصائد بغرض المدح فليسوا أهلاً لها، لكن أقوم بحياكة القصائد المقفاة الشديدة البراعة، كما يحيك الخياط الثوب الثمين، وقصائدي هذه مرسلةٌ للدهر محملةٌ بالحِكَم وببليغِ الكلام.

(تنبّه للأرذالِ يرفع أمرهم * فأصبح عن أهلِ المروءةِ ساهيا)

(كحيرانَ لا يدري الهدى كيف وجهُه * ضلالاً وما يَلقى إلى الرشدِ هاديا)

فعليك أيها السائل الكريم أن تسمع لهذه النصيحة مني، وأن تتنبه إلى حال من تتعامل معهم من الناس، وانظر إلى تاريخهم وسابق عهدهم، فإنك ستجد أنهم كانوا من الأراذل الذين لا شأن لهم ولا خلاق لهم، فلما ارتفع شأنهم وعظم أمرهم، ترى مثل هذه الصورة من الكِبرِ والتعالي ولؤم الفعال، فأصبحوا من الساهين عن أخلاق أهل المروءة والشمائل الكريمة.

ومَثَلُهُم في ذلك مَثَلُ الحيران الذي لا يستطيع أن يتعرف على سبيل الاهتداء لما يصبوا إليه، وكيف يكون وجه الهدى حاصلا عنده، فهو ضالٌّ في أمره ولا يجد من يهديه إلى الطريق الرشاد، فاحذر من معاملة مثل هؤلاء القوم.

(ترى كل ذي لبٍّ بأسفلِ تَلعةٍ * وكلَّ جهولِ الرأي يعلو الروابيا)

(كذي جيفِ الغرقي إذا هي أنْتَنت * وأجوت بطون الماءِ تعلو طوافيا)

واعلم أيها السائل الكريم أن من غريب أحوال هذه الدنيا، أنك ترى كل إنسانٍ ليس في مقامه الذي يستحقه، فإنك ترى كل ذي لُبٍّ أي: صاحب عقلٍ حكيمٍ وتفكيرٍ سليم، بمكانةٍ منخفضةٍ في المجتمع، مِثلَ الذي يَمكُثُ أسفل التِّلاع وهي: كل ما ارتفع من الأرض، وترى كذلك كلَّ جاهلٍ في عقله ورأيه، يحوز أعلى الدرجات والمكانة الاجتماعية المرموقة، مِثلَ الإنسان الذي لا يكون جلوسه إلا فوق الروابي، أي: الأراضي المرتفعة الكثيرة الخير والزرع.

وهذه القسمة الجائرة مَثَلُها كَمَثَلِ الجِيَفِ النتنة أي: الأجساد الميتة التي أصابها العفن والنتن، حينما تُلقَى في الماء، فإن الماء يلفظها خارجاً فتعلو على سطحه، وهكذا هي أحوال الدنيا وأيام الناس، فيا صاحب اللُّبِ اعتبر.

شرح قصيدة "أما يردع الموت أهل النهى"

للشاعر أبي فِراس الحَمَدَاني

أبو فِراس الحَمَداني من كِبار شعراء العرب في العصر العباسي، واسمه الحارث بن سعيد بن حَمَدَان، وُلِدَ بمدينة الموصل وقُتِلَ أَباهُ وهو صغيرٌ على يد ابن أخيه بسبب الرغبة في الحكم، وتمت رعايته بواسطة سيف الدولة الحَمَدَانِي، وتولى أعمالاً تحت إمرته ومنها توليه ولاية مَنبِج، وقد وقع في الأسر بيد الروم مرتين وكانت له أشعار في أسره من أجود ما يكون، وكان يراسل سيف الدولة حتى يفتديه إلا أن الأخير تكاسل في ذلك، حتى استطاع الهرب بنفسه من حصن خَرَشنَة الواقع على نهر الفرات، وفي أسره الثاني ظل يراسل سيف الدولة حتى تم تحريره.

قال أبو فراس الحمداني:

(أَما يَردَعُ المَوتُ أَهلَ النُهى * وَيَمنَعُ عَن غِيِّهِ مَن غَوى)

(أَما عالِمٌ عارِفٌ بِالزَمانِ * يَروحُ وَيَغدو قَصيرَ الخُطا)

يتسائل الشاعر عن حال البشر وعن أهل النُهَى فيهم أي: الذين يتميزون بالتفكير الحكيم والنظر البعيد، ألم يتفكَّر أحدهم في حال الموت وينظر إلى حال من كان قبله، ألم يسبق الموت إليهم فانتهت أعمارهم وسِيَرُهُم في هذه الحياة، فَلِمَ لَمْ يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وإفسادهم في الأرض، أليس فيهم من هو خبيرٌ بأحوال الزمان عارفٌ بها ويعلم أن الإنسان مهما عمر فلا بد سيموت، وبمنطلق هذا العلم يروح ويغدو في الحياة قصير الخُطَا، أي: قصير الأمل لا يطمع في الحياة الطويلة، فيقوم بعيش كل يومٍ بيومه دون انتظار الذي يليه.

(فَيا لاهِياً آمِناً وَالحِمامُ * إِلَيهِ سَريعٌ قَريبُ المَدى)

(يُسَرُّ بِشَيءٍ كَأَن قَد مَضى * وَيَأمَنُ شَيئاً كَأَن قَد أَتى)

فيا من هو غارق في ملذاته قد غلبه اللهو بألوان الحياة الزاهية، فصار يبغي في الأرض ويأمن بسبب جهله عاقبة ذلك والمصير الذي قد يؤول إليه، كيف يكون هذا حالك والحِمَام أي: الموت سريع الخُطا إلى البشر جميعاً، قريب المدى لا مفر منه ولا مهرب، فيكف يكون حالك إن أتاك وأنت بهذا البغي وشأنك هذا اللهو، وقد بلغ من خفة عقلك وسَفَهِ تفكيرك أنك تتعامل مع الحياة وملذاتها بكل سرورٍ دون تفريق بين حقٍ وباطل، وتستمتع بذلك كأنه تم لك ما تريد وذقت لذته ومضى ذلك، وبلغ من

سَفَه تفكيرك كذلك أنك تأمن العواقب، كأمنك بعد مجيئ ما كنت تتحرق شوقاً لرؤيته، فما أخيب ظنك وأضل سعيك.

(إِذا مامَرَرتَ بِأَهلِ القُبورِ * تَيَقَّنتَ أَنَّكَ مِنهُم غَدا)

(وَأَنَّ العَزيزَ بَها وَالذَليلَ * سَواءٌ إِذا أُسلِما لِلبِلى)

(غَريبَينِ مالَهُما مُؤنِسٌ * وَحيدَينِ تَحتَ طِباقِ الثَرى)

فلو أنك سَيَّرتَ نفسك يوماً تِجاه المقابِرِ، ونظرت إليها معتبراً متفكراً لتغير حالك، فإنك إن فعلت ستدرك أن هذه القبور يسكنها الآن، أناس كانوا على ظهر الأرض أحياءاً يروحون ويغدون، فيهم الصالح والطالح والغني والفقير وعزيز الشأن والحقير، فكما مضت أيامهم وانقضت أعمارهم سيكون ذلك مصيرك ومآلك، وستدرك أنك لا محالة منهم، فكلهم على اختلافهم قد سُلِّمَت أجسادُهُم للتراب، وأن الكل فيهم غريبٌ ليس له مؤنسٌ، ووحيد ليس له صاحب.

(فَلا أَمَلٌ غَيرَ عَفوِ الإِلَهِ * وَلا عَمَلٌ غَيرُ ماقَد مَضى)

(فَإِن كانَ خَيراً فَخَيراً تَنالُ * وَإِن كانَ شَرّاً فَشَرّاً تَرى)

وهناك تحت التراب ليس هناك أي أمل أو نجاة للعبد، إلا ما يناله من عفو الإله الديان الغفور الرحيم الكريم، وأنه لن يجد العبد معه تحت هذا التراب، إلا ما

كان قد قدمه من أعمالٍ في حياته، فإن كانت خيراً سيجد خيراً يناله، وإن كانت شراً سيرى شراً أمامه، فاعمل أيها العبد لهذا اللقاء وهذا المصير.

في البيت الأخير نجد الشاعر قد استخدم "التناص القرآني"، فهو متأثر بقول الله -عز وجل- في سورة الزلزلة: **{فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره}**.

وهكذا نرى أبا فِراسَ الحَمَدَاني يصف مُجِيداً حال الدنيا، ويصف مصير العبد ومآله، وأنه لن ينفعه طول أمله بدون عملٍ صالح يرضي الله -عز وجل-، وأن جميع الخلق بمختلف أنواعهم وأشكالهم، عند الموت وداخل القبور سواسيةٌ لا فرق بينهم.

* * *

الخاتمة

تمت بحمد الله –عز وجل– هذه الرحلة الطيبة من الأفكار والمناقشات والمواعظ والأدبيات وأرجو أن تكون رحلةً ماتعةً رائقةً وأن تكون قد خرجتَ منها عزيزي القارئ والقارئة وقد حصلت لك الإفادة وهو عين المراد والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب بكل ما سُطِرَ فيه خالصا لوجهه الكريم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمدلله رب العالمين.

أحمد محمود النجار

الفهرس

إهداء	٢
مقدمة	٣
الفصل الأول	٦
القسم الديني	٦
أساليب الدعوة	٧
وتوبوا إلى الله	١٠
هجرة الأمين المأمون	١٢
جملة أخلاق الصوفية	١٥
لا تبطلوا أعمالكم	١٧
معراجك يا حبيب	٢٠
الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم جـ١	٢٣

الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم جـ٢	٢٦
الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم جـ٣	٢٩
وما كفر سليمان	٣٣
الصادق الكاذب والشاهد الغائب	٣٥
حلاوة الطاعة سمٌ قاتل	٣٨
لا تجعلوا القرآن عرضة لما شجر بينكم	٤١
بالتي هي أحسن	٤٤
صِنَاعَةُ الفَتوَى	٤٨
المَالُ الصَّالِحُ والرَّجُلُ الصَّالِحْ	٥٠
مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي المعظم	٥٣
الفصل الثاني	٥٧
القسم الفكري والاجتماعي	٥٧
التربية الوسط	٥٨
ولكل وجهة هو موليها	٦٠
الكُلُّ قَصَّابْ	٦٢

المؤنسات الغاليات	٦٥
ما هي إلا عتبة	٦٨
إنها الهمة	٧٠
أين صاحب المروءة؟	٧٣
إنه معرض الكتاب ٢٠٢٢	٧٧
مفتاح قيدك بيديك	٨٠
ما لكم كيف تحكمون!!	٨٤
عنترة العبسي	٨٦
الإمامُ المُمتَحَن	٨٩
الباحث عن الحقيقة	٩٢
الإمام القاضي	٩٥
نظرة في ممالك النار	٩٩
نظرة في الشعر والشعراء	١٠١
الخفيُّ التقيّ	١٠٤
السيد أبو الفتيان	١٠٨
صاحب الأدب كريم العينين	١١٢

مشاهِدُ الكرم	١١٥
مُفتِي الأنام ودُرَّةُ عُلَمَاءِ الإسلام	١١٩
نَزِيلُ الخَالِدِينْ	١٢٣
الإنسان الثاني	١٢٧
إنَّ الحياةَ دقائِقٌ وثَوَانِي	١٣٠
الفصل الثالث	١٣٤
القسم الأدبي	١٣٤
طبقات فحول الشعراء	١٣٥
ـقراءة نقديةـ	١٣٥
قصيدة مصر تتحدث عن نفسها	١٣٩
(قراءة نقدية تاريخية)	١٣٩
رواية صلاح الدين الأيوبي لـ جُرجِي زيدان	١٤٤
(قراءة نقدية)	١٤٤
قصيدة: الخير والشر لـ أبي العتاهية	١٦٠
ـدراسة أسلوبيةـ	١٦٠

النسوية والأدب العربي	**١٧٤**
قصيدة: "أحب من الإخوان" للإمام الشافعي -شرح وتحليل-	**١٧٨**
شرح قصيدة " مولد النور"	**١٨١**
شرح قصيدة: "ألا أيهذا السائلي"	**١٨٦**
للشاعر ابن الرومي	**١٨٦**
شرح قصيدة "أما يردع الموت أهل النهى"	**١٨٩**
للشاعر أبي فِراس الحَمَدَاني	**١٨٩**
الخاتمة	**١٩٣**
الفهرس	**١٩٤**